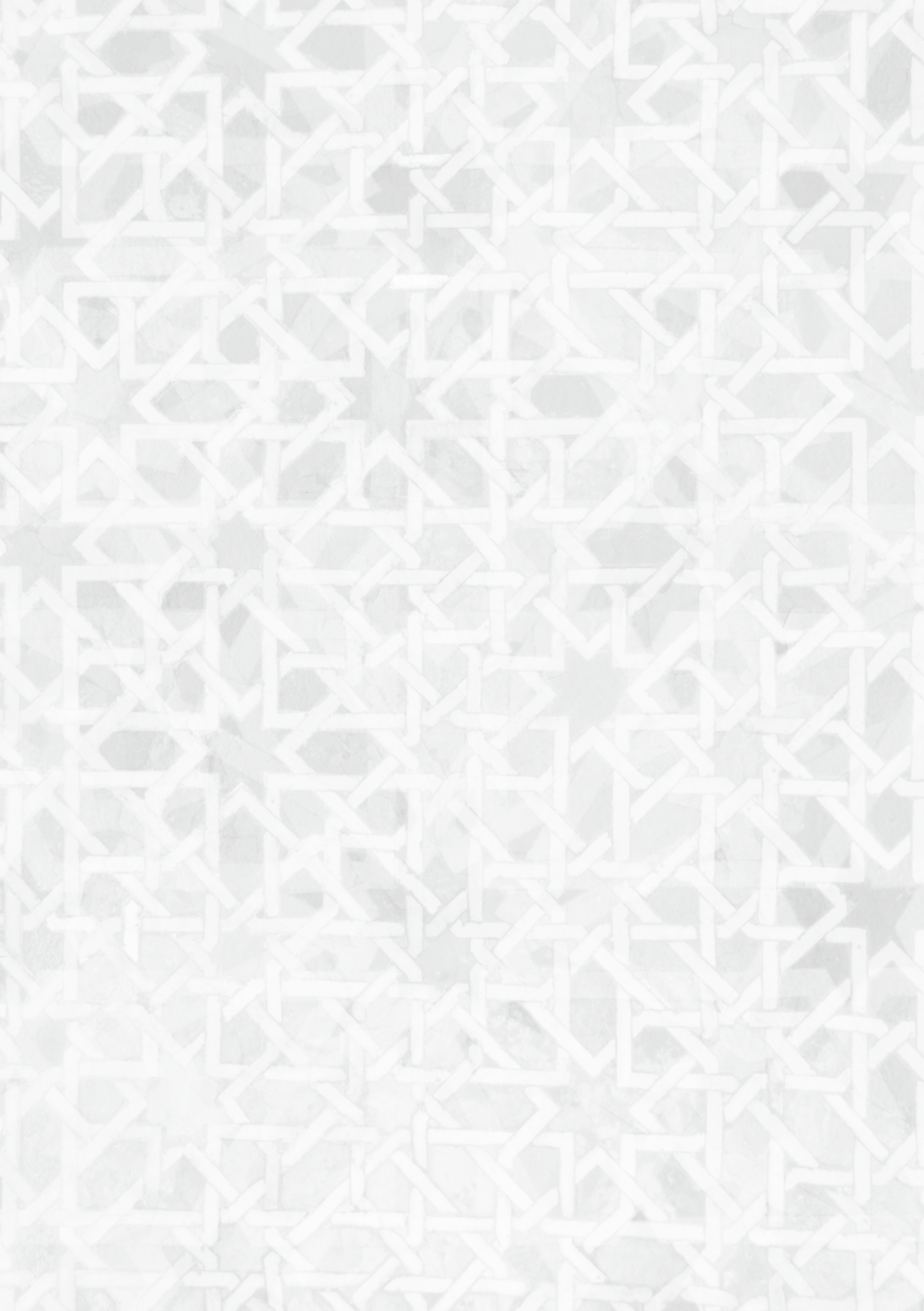
كتاب الدوحة

المُعتمدُ بنُ عبَّاد

في سنواته الأخيرة بالأسر

د. عبد الدين حمروش





المُعْتَمِدُ بنُ عَبَّاد

في سنواته الأخيرة بالأسر

د.عبد الدين حمروش

كتاب الدوحة 47

يوزع مجاناً مع العدد 90 من مجلة الدوحة إبريل 2015

المُعْتَمِدُ بنُ عَبَّاد

في سنواته الأخيرة بالأسر

د.عبد الدين حمروش

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

التصميم والإخراج : علاء الألفي - مجلة الدوحة

محتوى الكتاب



قصر المبارك الذي كان مقرَّ حكم المعتمد بن عبَّاد طوال عهده

بين يديّ الكتاب

حاز المعتمد بن عباد، الملك والشاعر، شهرة طبَّقت الآفاق. وقد كان من وراء ذلك عوامل عديدة، امتزج فيها الأدب بالسياسة، مثلما امتزج الدين بالتاريخ. وإن رمنا الاختزال، قلنا إن العامل الحاسم تمثَّل في بروز المعتمد، ثمرة لحظة فارقة في التاريخ العربي- الإسلامي بالأندلس. فالعصر كان عصر حضارة وأدب مزدهرين، إلى جانب كونه عصرَ أحداث سياسية كبرى.

ويكفي أن نستدلّ على الأهمية التي اكتساها العصر، باجتماع ستة شعراء أندلسيين كبار، بالموازاة مع اجتماع ثلاثة رجال/ حكام كبار. بالنسبة للشعراء، فهم ابن زيدون، ابن عمار، ابن حمديس، ابن اللبانة، ابن عبدون، والمعتمد. أما بالنسبة للسّاسة، فهم ملك قشتالة الأدفونش(ألفونسو السادس)، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وحاكم إشبيلية المعتمد بن عباد. لقد قُيِّض لهذا العصر، وهو يشهد أَوْجَهُ الحضاري- الثقافي، أن يكون عصر أحداث سياسية كبرى،

تُوِّجت بحدثين عظيمين تجسَّداً في: معركة الزلاقة في بداية الأمر، وترحيل المعتمد مُعْتَقَلاً إلى المغرب في نهايته.

حين تلتقي السياسة بـالأدب، في سياق أحـداث كبرى، يُكتب للتاريخ صفحات عميقة ومثيرة في الآن نفسه. العمق كان مصدره خيالاً شعرياً جامحاً، ظلّت تسكنه قيم إنسانية قوية وعنيفة، سواء في لحظات سُموِّها ورفعتها، أم في لحظات ضَعتها وانحطاطها. ذلك ما لاحظناه من خلال اقتراب قصّة الملك/ الشاعر من التاريخ الشعبي، بما باتت تهجِس به من خرافة وأسطورة.

هذا، في حين كان مصدر الإثارة، تلك الانقلابات الدراماتيكية التي شهدتها الأحداث في مختلف مجرياتِها. من الانقلابات الحاصلة، كان للمعتبِر بالتاريخ فرصة تجريد حِكَم مضيئة بشأن تقلّب الحال، ومن ثَمّ غدر الزمان.. المعتمد، نفسُه، كان في مقدمة المعتبِرين في سجنه بأغمات، ومن بعده شعراؤه الذين خالطوه في بلاط حكمه، وعلى رأسهم ابن اللبانة وأبو بكر بحر بن عبد الصمد.

وإن ظَـلّ من الصعب الفصل بين الحاكم والشاعر في شخص المعتمد، فإن انتصارنا الحقيقي سيكون للثاني، أي بما صدر عنه من شعر في غاية من السُّمُو الإنساني والجمالي. وبعبارة أخرى، فإن ما قد يُلاحظ من استفاضة تاريخية في بعض الأحيان، ليس من شأنها أن تغطي على الجانب الأدبي في هذا العمل.

وَلَعلّ خير تجسيد لما قلنا، سعْيُنا إلى ضم «قصائد السجن» من قصائد المعتمد وشعرائه، ضمن مجموع واحد في الفصل الثالث.

نسمي هذه القصائد «مغربيات»، نظراً لحصول نظمها في المغرب من جهة، ونظراً لاستيحائها حدث اعتقال المعتمد في أغمات، وكذا ظروف ذلك الاعتقال وشروط حياته فيه، من جهة أخرى.
لقد كانت حياة المعتمد زاخرة بالأدب والسياسة، لم نجد لها إلا أمثلة قليلة في التاريخ العربي- الإسلامي. ومثلما كان الأمر قيْد حياته في الأندلس أو المغرب، فقد عرفت «حياة» المعتمد نفس الزخم بعد مماته، بالنظر إلى الكمّ الهائل من الدراسات المحيطة بطبيعة حكمه وأدبه على حدٍ سواء.
غير أن ما كان يهمّنا من كلٍ ذلك، هو التواصل الثقافي- الحضاريّ، الذي كان المعتمد أحد عناوينه العريضة.. في شعره بوجه أخصّ. ولأن أمر التواصل لم ينقطع في أية فترة، فإن المطلوب استمراره بشكل أقوى اليوم. لاشك في أن معطيات كثيرة تغيّرت حتّى الآن، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يقوم حائلاً.. مادام الإنسان هو الإنسان في نهاية المطاف، كان في الضفة الشمالية أو في الضفة الجنوبية.
من قراءة التاريخ جيِّدا، السياسي والأدبي، تبدو فُرص التواصل أكثر غنى وعمقاً. وفي قلب هذا التواصل، بات المعتمد بؤرة التقاء بين الثقافات والحضارات، في عالم تقضّ مضجعه أكثر من بؤرة نزاع اليوم. ولَعلّ هذا ما سعت إلى أن تبادر به هذه الدراسة الصغيرة في حجمها..

وبالله التوفيق



مسجد باب المردوم أحد أقدم معالم مدينة طليطلة
التي خاض المعتمد ووالده حرباً طويلة معها

في التَّواصُل الثَّقافيّ المَغْرِبيّ-الأندلسيّ

بين المعتمد وابن تاشفين:
قول بيت شعر أم إنقاذ مملكة؟!

- 1 -

هناك قضايا/ أحداث تظلّ حيّة، مثل الجمر طيّ الرماد، في وجدان الشعوب. ويبدو أن حياتها تكتسب قوة رمزية، جراء ترسيخها صوراً نمطية معينة. وتتميز هذه الأخيرة بكونها صوراً يصطنعها شعب ما عن نفسه، مثلما قد يصطنعها عنه آخرون، من خلال استعادة بعض الأحداث القوية، في بعض من مفاصل التاريخ الحاسمة. بالاستعادة المُتجدّدة في الزمن، لا نلبث أن نصير بصدد صور، لها قدرة على الانحفار في المخيال الجماعي لشعب أو أمة. وقوة الأحداث المقصودة، هنا، لها علاقة بما هو رمزي أكثر من غيره، نظراً لنفاذه في تركيبة الشعور، الذي من خلاله تتم قراءة الذات، في علاقتها بالأنا والآخر على حدٍ سواء. ولذلك، يبدو من دون أهمية تصنيف الحدث في خانة الكبير أو الصغير، في خانة السياسي أو الثقافي، ما دمنا نجد أنفسنا «مثقلين» برمزية سيف يُهْدى، أو كلمة تُلْقى في

سياق ذي حساسية تاريخية مُعيّنة.

إن غير قليل من الأحداث يستمر حيّاً فينا، بحيث يُحدّد علاقاتنا بالآخر من حولنا، سواء أتمّ ذلك بصورة إيجابية أم سَلبية. ومن هنا، نستطيع أن نُقدِّر حجم سوء الفهم، الذي لا يكفّ عن أن يرخي بظلاله في وجه تطبيع أية علاقة بين طرفين، خصوصاً إن كانت هذه العلاقة في صيغة الجمع. وأعتقد أن لنا غير قليل من مثل تلك «الالتباسات» التاريخية، التي «تعمل» في شعورنا ولا شعورنا، بصور نجد فيها أنفسنا في موقف الدفاع، أو في موقف جلد الذات في حالات الوعي الإنساني القصوى.

- 2 -

من بين القضايا التاريخية، ذات الطبيعة الثقافية- السياسية، تطفو إلى سطح الوعي قضية المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية الشاعر. فقد بعثت صورة أسره، من قِبَل يوسف بن تاشفين، صوراً أخرى من سوء الفهم المُتجدّد، بين من يُدين ومن يتفهّم.. لدرجة غدا معها الأمر محاكمة لتاريخ ما لدى البعض، والإطار أكبر مما هو ثقافي بالطبع. ونستطيع أن نتلمّس حجم الضَّيق من تلك المحاكمة المتكررة، في ما نلحظه من ردود قوية ممن ينتصبون حماة لذلك التاريخ، المُراد وصله بقيم الفخر في الحاضر. فالقضية في بعدها الأدبي، ما تفتأ أن تصير ذات بعد سياسي، عنوانها الرئيسي: علاقة المعتمد بيوسف،

بما تختزله من علاقات أخرى بين الماضي والحاضر، بين الحضارة والبداوة، بين الطبيعة والصحراء، بين العرب والبربر، بين الشرق والغرب، بين الإسلام والنصرانية[1]، وهكذا.

وَلَعلّ عودة إلى بعض ما كُتِبَ في الموضوع، على كثرته، ستضعنا في أتون معركة استُعمل فيها مختلف «الأسلحة» لإفحام الآخر، بل لإخراسه بصفة نهائية. ولأن الالتباس ظَلّ سيّد الموقف، فقد وجدنا من يصر على وضعنا في موقف المفاضلة بين «قول بيت من الشعر على إنقاذ مملكة من أزهى ممالك العرب والإسلام وأوسعها وأغناها وأعظمها حضارة وعمراناً ورُقِيّاً»[2]. بل إن البعض الآخر، بلغ به الأمر إلى حد تغليب الظن بالقول: إنه «لو قُتل(أي المعتمد) في هذه الحرب لما كان لقضيته ذكر بغير القدر الذي تتيحه الأحداث»[3]. أوليس يحتمل مثل الكلام الأخير عتاباً مبطناً لابن تاشفين على إعفائه حياة المعتمد، بالرغم من أن هذا الأخير «لم يكن ليقنع أو يرضى بمعاملة المرابطين له مهما بلغت من العناية والإكرام، لاسيما حين تقارن ما كان يعيش فيه من بذخ

1- في سياق حديثه عن قضية المعتمد، كرر الجراري (عبّاس)، كلمة النصرانية والمسيحية ومشتقاتهما أربع عشرة مرة تقريباً لتبرير تدخل يوسف في الأندلس، بوصفه حامياً لبيضة الإسلام فيها. الأدب المغربي، من خلال ظواهره وقضاياه، مكتبة المعارف، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الرباط، 1986.

2- كنون(عبد الله)، النبوغ المغربي في الأدب العربي، الطبعة الثانية، الجزء الأول، بدون تاريخ، ص. 64.

3- الجراري (عباس)، المرجع السابق، ص. 115.

وتــرف»..؟[1] أو ليس يعتبر يـــوسف أرحــمَ من بعضهم بإعفائه ذاك، تـاركاً المعتمد يتصل بالشعـراء، ويتطارح معهم الشعر، ليورثنا في مقامه الأخير بـ «أغمات» ما نسميه «المغربيات»: مجموع القصائد المنظومة في المغرب من قِبَله، ومن قِبَل زواره من الشعراء؟ أوليس في ذلك قيمة تاريخية للأدب وللإنسانية كافة، تعالت عن أن تكون مجرد «بكاء وعويل»[2]، كما قال العلاّمة عبد الله كنون وقد أخذته الحمية على يوسف، وعلى العروبة والإسلام؟

من المؤكد أن تولّي المرابطين زمام الأمـور بالأندلس، كان من ثمراته، في ما تلا من عقود، ابن رشد وابن طفيل وأبناء زهر وابن العربي وابن الخطيب[3].. لكن من المؤكد، أيضا، أن حياة المعتمد كانت ثمينة أيضا، خصوصاً بالموازاة مع حياة أخرى أثمن وأنفس: نصوص من أرقى ما أُنتج أدبياً وإنسانياً، في العدوتين على حدّ سواء. أما في الجهة الأخرى، فهل كان يستحق ابن تاشفين كل ذلكً النَّيل من شخصه، بصفته مُحارباً انتصر في معركة، صادفت أن دخلها شاعر/ فارس وخسر.. أو لم ينتصر المعتمد، بالمقابل، على أنداده من أمراء الطوائف في أكثر من معركة، اقتضت أن يحتشد المدّاحون ببابه، تخليداً لشراسة المحارب فيه، وهو الرقيق شعوراً وإحساساً؟ لماذا جرى الزعم بامتناع شعراء الأندلس عن مدح يوسف، لولا توسّط ابن عباد لديهم بحسب ما حكى الشقندي، في سياق مفاخرته

1- نفسه، ص.117.

2- كنون (عبد الله)، المرجع السابق، ص.63.

3- نفسه، ص.64.

الشهيرة على المغاربة[1]؟ وهل كان يوسف، نفسُه، في حاجة لأن يجري له الشعراء ذكراً ويرفعون لمُلكه قدراً، وهو صاحب العبارة المُزلزلة ببلاغتها إلى الأدفونش: «الذي يكون ستراه»[2]؟ لماذا يتم الاقتصار من أبي القاسم المعتمد على شخص الشاعر فيه، ترتيباً لمواجهته بالمحارب في شخص يوسف، بشكل يؤول الأمر فيه إلى مواجهة: بين الكلمة والسيف؟ لماذا يصير يوسف صاحب الشخصية الفذة التي في نظر البعض، ومنهم الشيخ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير، «كان حسن السيرة خيِّراً عادلاً، يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم ويُحكِّمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام»[3].. يصير إلى مجرد طامع في الاستيلاء على الأندلس، من خلال استدلال البعض الآخر على ما حُكي عن قول يوسف لثلّة من أصدقائه الثقاة: «كنت أظن أني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد، صغرت في عيني مملكتي،

1- بعكس ما يُقال، وجدنا أبياتاً للمعتمد يمدح فيها ابن تاشفين، وإن لم يصل الأمر إلى حد نظم قصيدة بكاملها فيه. ومن تلك الأبيات، ما نسجله، بالاعتماد على نفس القصيدة:

وقَلبي نَزوعٌ إلى يوسف ... فلولا الضّلوعُ عليهِ لطارا

ولولاكَ يا يوسفُ المُتّقى ... رأينا الجزيرةَ للكُفرِ دارا !

2- ابن عباد (المعتمد)، ديوان المعتمد ابن عباد، ملك إشبيلية، جمع وتحقيق رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، ص. 159.

- وقيل إنه كتب «الجواب ما ترى لا ما تسمع»، النبوغ المغربي، ص.79.

3- نقله ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، عن عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير، في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، دار الكتاب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998، المجلد الخامس، ص.482.

فكيف الحيلة في تحصيلها؟ [1].

- 3 -

تُعدّ قضية المعتمد من بين القضايا القليلة، التي حازت اهتماماً كبيراً منذ اندلاعها إلى اليوم، من لدن كثير من المؤرخين والأدباء والنقاد. ولَعلّ السبب يعود في ذلك، بالإضافة إلى بعدها الأدبي، إلى بعدها الثقافي- التاريخي، الذي ما فتئ يفرض على البعض الحسم في«تركة» المعتمد، الثقيلة أدبياً وإنسانياً. ولأنها كذلك، فقد توزعتها مناطق نفوذ عدّة، شملت المشرق إلى جانب المغرب، مثلما شملت العرب إلى جانب الأوروبيين. وفي هذا الإطار، يمكن أن نتخيل مختلف الاعتبارات الأدبية، الدينية، الوطنية، والقومية.. التي يمكن أن تتدخل لتنتحي بالقضية انتحاء أكثر التباساً، ومن ثَمّ أكثر إثارة. وقد لمسنا، في ما سبق، ضيق بعض المغاربة من آراء ثُلّة من المستشرقين، أولئك الذين لم يدخر أغلبهم جهداً في إدانة الأمير اللمتوني بأقسى الأحكام، بل والحقبة المرابطية بكاملها[2]. ولا عجب إن ألفينا، بالمقابل، من يعتني بأبي القاسم ابن عباد، باعتباره أحد رجالات الأندلس الأفذاذ، الذين يستحقون الاحتفال بذكراهم

1- المراكشي (عبد الواحد بن عليّ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح وتعليق وتقديم محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الطبعة السابعة، الدار البيضاء، 1978، ص.204.

2- يأتي في مقدمتهم رينهارت دوزي (Reinhart Dozy).

وطنياً في الثامن والعشرين من فبراير من كل سنة، في إطار ما سُمِّي يوم الأندلس. أليست نفس الروح الوطنية، هي التي حثت الشاعر الأندلسي «بْلاس إنفانته»(Blas Infante) على القيام بزيارة قبر المعتمد و«حرب الرّيف» مشتعلة بشمال المغرب وقتذاك؟

إن موضوع المعتمد ليس معزولاً في السياق التاريخي العربي، خصوصاً في جانبه الأدبي، باعتبار وجود مواضيع أخرى لا تقِلّ عنه أهمية، مثل موضوع أبي فراس الحمداني في علاقته بالمتنبي وسيف الدولة.. أو ليس هو موضوع المعتمد، نفسه، في علاقته بابن عمار وأمير المرابطين يوسف؟؟؟[1]. فالأمر يتعلّق فيها، جميعاً، بأرض مشتركة يتقاسمها الأدب والجاه والسلطة، بقدر ما يتقاسمها الولاء والطموح والخيانة. غير أن المعتمد انفرد عنهم، بشكل مجمل، بغرابة قصته، التي ظَلّ يسكنها الانقلاب من حال لحال في مختلف مُجرياتها. ومن هنا، نفهم سِرّ انتشارها الواسع، ذلك الانتشار الذي تعدّدت أشكاله ولغاته ونبراته. فبعكس المتنبي، الذي حافظت قضيته على زخمها الأدبي، وهو الذي شغل الدنيا والناس شعراً، وجدنا أن قضية المعتمد تنحرف كثيراً باتجاهات أخرى، بتأثير من حساسية الفترة التي حكم فيها الأندلس. وبطبيعة الحال، لم يكن من المستغرب أن يواكبها الصراع في وجهات النظر، لدرجة صارت معها لغة الإدانة هي السيدة، لدى البعض من الطرفين، مع ما كان يرافقها

1- لا ينبغي أن ننسى أن هناك من يشبه المعتمد بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس، ذكاء نفس وغزارة أدب، كما هو الحال مع صاحب المعجب، ص.149.

من ألفاظ تخرج إلى حدود العنف والتطرّف.

- 4 -

في غير مرجع من المراجع، التي اهتمت بالموضوع، تطالعنا ملاحظة دالة، مفادها أن مجريات قصة المعتمد غريبة. وقد لخّص غرابة تلك القصة صاحب «وفيات الأعيان» بقوله: «وأشعار المعتمد وأشعار الناس فيه كثيرة، وقد جاوزنا الحد في تطويل ترجمته، وسببه أن قصته غريبة لم يُعهد مثلها».[1] إضافة إلى غرابتها، فقد كانت أخباره كثيرة، تعدّدت أطرافها وموضوعاتها. وقد استغرقت تلك القصة ثلاثة وخمسين حوْلاً، أي منذ ولادته بـ «باجة» سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة إلى أن كانت وفاته بـ«أغمات» سنة ثمان وثمانين وأربعمئة[2].

بين الولادة والوفاة، جرى عمْر ليس بالمديد حسب التقويم الطبيعي

1- وفيات الأعيان، المجلد الرابع، ص.289.

وفي الإطار نفسه، نقرأ ملاحظة ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد)، حيث يقول: «وأخبار عباد في جميع أفعاله وضروب أنحائه عالياته وسافلاته غريبة بعيدة»، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثالث، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1998، ص.207.

2- العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن حامد)، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ، تحقيق آذرتاش آذرنوش، تنقيح وزيادة محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، 1971ص.25.

للزمن. غير أن الأمر ليس كذلك، على الإطلاق، حين نُقَدِّر زخم تلك الحياة من الناحيتين، السياسية والأدبية لبطلها الملك الشاعر[1]. وإن كان بعض الدارسين يُقسِّمون حياة صاحبنا إلى مرحلتين، وهما حياة الأمير فحياة المَلِك، ثم حياة الأسير[2]، فإن بالإمكان استعادتهما عبر الحديث عن مرحلتي ما قبل الأسر والإقامة في المنفى. وتكمن العِلّة من ذلك، في جدوى تركيز الانتباه إلى الانقلاب في سيرة أبي القاسم، باعتباره جوهر الغرابة التي طبعت التاريخ الشخصي له. والملاحظ أن ما نسميه الانقلاب يمس أكثر من مستوى، يمكن تشخيصه في الثنائيتين التاليتين:

- المعتمد- ابن عمار،
- المعتمد- ابن تاشفين،

ومن الطبيعي، ونحن نكتفي بتينك الثنائيتين الضديتين الكبريين، أن نشير إلى إمكانية تمددهما، بحيث تضمان ثنائيات أخرى، من قُبيل:

المعتمد- الأدفونش،

المعتمد- المعتصم بن صمادح.

وبالمقارنة مع مختلف الأطراف، كان ملك إشبيلية سيِّد المواقف: أدباً، وشجاعة، وأخلاقاً، وحِنكة سياسية. وحتّى في لحظات ضَعفه،

1- يقول المراكشي في المعجب: «فكانت مدة ولايته إلى أن خلع وأسر: عشرين سنة، كانت له في أضعافها مآثر أعيا جمعها في مئة سنة أو أكثر، كانت له رحمه الله همة في تخليد الثناء وإبقاء الحمد»، ص.150.

2- جرى هذا التقسيم من لدن جامع ديوانه ومحققه الدكتور رضا الحبيب السويسي.

كان المعتمد الكريم، العفيف، العزيز نفساً[1]. وكثيراً ما حاز صفات عالية، سواء من قِبل شعرائه، أم من قِبل غالبية المؤرخين ممن تداولوا سيرته. ولا يخفى كم كان ذلك يبلغ من السمو والرفعة ما لا يضاهى، لدرجة كدنا نعتقد معها أننا بصدد شخصية أسطورية. وحتّى ما تعرّض له من ذلة في الأسر، وُظِّف في سياق الإعلاء من شأنه، كسباً لقلوب قُرّاء سيرته وشعره. إن عملية الإعلاء المُبالغ فيها تلك، كانت تستهدف تقرير حجم السقوط المُدوّي في العقول والنفوس.

ومن الجدير الإشارة إلى أن «أسطرة» شخصية المعتمد، كانت تتكئ على أسلوب الرُّؤيا/ الحُلم، بهدف تحشيد مختلف الملامح الضرورية لتحقيق الغرابة المرجوة. فمثلما قُدِّم النبي إسماعيل ضحية بين يدي أبيه، كان الأمر نفسه بالنسبة للمعتمد، حين رد على أبيه قائلاً: «جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن ينزله بك فكانت دعوة وافقت المقدار».[2]

إضافة إلى ما سبق، هناك رؤيا أخرى تُجسدها أبيات، جاءت في سياق حلم رجل رأى في منامه، قبل الكائنة العظمى على بني عباد بأشهر يسيرة. والأبيات، كما رواها صاحب المعجب، هي:

1- يتم الحديث، في هذا السياق، عن عدم استعطافه يوسف بن تاشفين في أسره، طلباً لانفراج كربته.

2- جاء ذلك الرد بـ«المعجب» في سياق ما يلي: «وكان المعتضد في كل وقت يستطلع أخبار العدوة: هل نزل البربر رحبة مراكش، وذلك لما كان يراه في ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعوا ولده ومخرجوه من ملكه. فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر إليهم مُصعِّداً ومُصوِّباً ويقول: يا ليت شعري من تناله معرة هؤلاء القوم، أنا أو أنتم »، ص.148.

رُبَّ ركب قد أناخوا عِيسَهُمْ في ذُرى مَجدِهمُ حينَ بَسَقْ
سكتَ الدّهرُ زماناً عنهُم ثمَّ أبكاهم دماً حينَ نَطَقْ !

هكذا، تَمّ توظيف أسلوب الرؤيا لتأكيد قدَر كان مقرراً من قبل قوة متعالية. فالمسألة ليست في ضعف المعتمد، وهو يواجه أعداءه، وإنما في ضعف الشرط الإنساني بصورة عامة، حين يكون في مواجهة قوة ساحقة، وإن تجسّدت في شخص الأدفونش مرة، أو في شخص يوسف بن تاشفين مرة أخرى.

- 5 -

انطلاقاً مما ذُكِرَ، يبدو أن سقوط ابن عباد المدوّي لم ينلْ من شخصه «الكامل» في أي شيء، مادام من تدبير مشيئة فوق-طبيعية. وقد حفظت لنا كتب التاريخ من سير وتراجم، إضافة إلى نصوص الشعر، غير قليل من مصادر فخر شخصية المعتمد. وعموماً، يمكن إحالة تلك المصادر إلى ما يلي:

- المصدر المُلوكي، باعتبار مآل نسبه إلى النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك «الحيرة»[1]. وقد وُظّف شرف النسب شعراً من قبل الشعراء، ومنهم ابن اللبانة (أبو بكر عيسى الداني) الذي ينسب إليه ابنُ الأبّار هذين البيتين:

1- وفيات الأعيان، المجلد الرابع، ص.274.

مِن بَني المُنذرينَ وَهو انتِساب زادَ في فخْرِهِ بَنو عبّادِ
فِتيةٌ لمْ تلِدْ سواها المَعالي والمعالي قَليلةُ الأوْلادِ [1]

- المصدر المشرقي، تبعاً لنسبه اللّخمي، حيث حُدِّد جغرافياً في العريش، المدينة القديمة الفاصلة بين الشّام والديار المصرية في أول الرمل من جهة الشام. ويقوم الأصل العربي نقيضاً للبربري، باعتبار ما تَجسَّد من صراع ضارٍ على السلطة بين آل عباد وبني حمود/ البربر من أصل إدريسي[2]. أمّا بالنسبة للأصل الأندلسي، بعد دخول نعيم وعطاف، فقد حُدِّد في قرية «يومين»، من إقليم طشانة من أرض إشبيلية على حد تعبير ابن خلكان[3]. والأخيرة توصف بكونها من

1- والشاعر الحصري يركز، هو الآخر، على نسبه حين يقول:
يا فرعَ المُنذرِ والنُّعما نِ بلغتَ النّجمَ فطُل وزد
مُر وافتَح باقي أندلسٍ ما في صبب أو في صعد

2- كان عنوان ذلك الصراع موضوع الخلافة، الذي انتهى بتدبير القاضي أبي القاسم محمد بن عباد قصة المشبه هشام بن الحكم المرواني، قطعاً للطريق على بني حمود. وعن ذلك، يحكي ابن القطان، حسب ما جاء في «البيان المغرب»: «وكان قد ذكر أن هشاماً فرّ من الفتنة ورفض الملك وكتم أمره وأخفى نفسه (...) فخرج إليه القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد هذا وولده إسماعيل وجميع خاصته وعبيده ومعه أثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم ومراكبهم (...) وألبسوه الكوة الخلافية ووضعوا القلانس على رأسه وأركبوه ومشى القاضي وجميع من جاء معه أمامه وكان هذا الرجل يقال له خلف الحصري وكان يشبه هشاماً..»، ص،ص.199 - 200.

3- ترجمة المعتمد وردت في أكثر من مصدر، منها «وفيات الأعيان»: «المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن الظافر المؤيد بالله أبي القاسم محمد قاضي إشبيلية بن أبي الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمي...»، المجلد الرابع، ص.274.

أعظم مدن الأندلس، بحسب ما حكى «المقري» عن بعضهم[1].

- المصدر الشخصي، انطلاقاً مما كان يتميز به أبو القاسم من ثراء خلقي ورجولي، فاق كل حدّ في نظر غير قليل مِمّن تناولوا سيرته. والثراء المقصود يتجسّد في مختلف الخصال المجتمعة في شخصه، ضمن إطار ما يُشكِّل نموذج الشخصية العربية المثالية، بما تحوزه من شجاعة، كرم، أَدب، حِلم، حسن صورة،[2]... ومما قيل في حقّ المعتمد، بهذا الشأن، ما لخَّصه صاحب «المعجب» في هذه الفقرة البليغة «وفي الجُملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم، وضرب له فيها بأوفى سهم، وإذا عُدَّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها، بل أكبرها»[3]. ويمكن تعديد ما جُبِلَ عليه صاحبنا من خِصال على النحو التالي:

1- جاء لدى المقري (أحمد بن محمد التلمساني): «وقال بعض من وصف إشبيلية: إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، وعليه جسر مربوط بالسفن، وبها أسواق قائمة، وتجارات رابحة، وأهلها ذوو أموال عظيمة، وأكثر متاجرهم الزيت(...) يمشي بها السائر في ظِلّ الزيتون والتين- فيما ذكر بعض الناس- قرى كثيرة، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق»، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، 1988، ص،ص.158 - 159.

2- حددها المراكشي كما يلي «وكان فيه من الفضائل الذاتية ما لا يُحصى، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفية»، المعجب، ص.149.

3- نفسه، ص.150.

كما لا ننسى ما قاله ابن تاشفين، نفسه، عن المعتمد، إضافة إلى ابن صمادح في هذا السياق«هذان رجلا هذه الجزيرة»، نفسه، ص.201.

أ- السخاء: يأتي في المقدمة، وقد كان موضوع الشعراء الأثير ممن خالطوا بلاطه، ووفدوا عليه بـ «أغمات» أسيراً، ومن بعدُ دفيناً. والسخاء في المعتمد قيمة أصيلة، لا تكاد تفارقه في أوقات الرخاء والشدّة. وقد بلغتنا في الأمر حكايات كثيرة، منها ما حكاه ابن اللبانة حين زار المعتمد في سجنه. فقد حرص الأخير على أن يبعث إلى شاعره بـ «عشرين مثقالاً مرابطية، وثوبين غير مخيطين، وكتب معهما أبياتاً، منها:

إليكَ النّزْرَ منْ كفّ الأسـير — وإنْ تقنعْ تكنْ عينَ الشَّكورِ

تقبَّلْ ما يذوبُ لهُ حياءً — وإنْ عذرَتهُ حالاتُ الفقيرِ[1]

ومما يهمّنا في الأمر حقيقة، هو ما أجاب به أبو بكر الداني، مُركِّزاً على قيمة سخاء ممدوحه وكرمه:

حاشَ للهِ أن أُجيحَ كريماً — يَتشكّى فقراً وقدْ سَدَّ فَقرا[2]

وكَفاني كلامُك الرَّطبُ نيلاً — كيفَ أُلغي دُرّاً وأطلبُ تبرا

لمْ تمُت إنَّما المكارمُ ماتَتْ — لا، سقى اللهُ بعدكَ الأرضَ قطْرا

ويقول الشاعر ذاتُه:

1- نفح الطيب، المجلد الرابع، ص،ص.96 - 97.

2- تعرف المصادر، التاريخية والأدبية، التي نقلت شعر الداني كثيراً من الاختلافات في الرواية. وللإشارة، فإننا نقلنا كل بيت أو مقطع، في هذا القسم، مثلما ورد كل منهما في المصدر المستشهد به. أما في القسم الثاني، حيث جمعنا القصائد المنظومة في المعتمد بالمغرب من قبل شعرائه، فقد اعتمدنا الديوان مصدراً أساسياً، بتحقيق منجد مصطفى بهجت.

ومنْ رَمَتْهُ منَ الأيّام حادثةٌ فليسَ غ`يرُ ابن عبّاد لَها وزرُ
ملكٌ غدا الرِّزقُ مَبعوثاً على يده وظَلَّ يجري على أحْكامه القدَرُ
كِلْني إلى أحدِ الأبناءِ يُنعِشُني ما لمْ يَكنْ منكَ بحرٌ فليكنْ نهرُ[1]

ولعل أكبر المتأثرين، من زوال حكم بني عباد، هم الشعراء بالتحديد. فقد صُوِّر المعتمد حامياً لهم من غوائل الزمن، إلى درجة اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس[2]. وفي هذا الأمر بالذات، كانت حملة كثير من المؤرخين على الحكم المرابطي بالأندلس، باعتباره مسؤوليته عن ضياع دولة الأدب والفن في الجزيرة. وقد بلغت الحملة أقصى مدى مع المستشرق رينهارت دوزي (Reinhart Dozy)، الذي أعدَم فترة حكمهم بكاملها، من خلال وصفها بالجهل والظلام[3].

1- خريدة القصر، ص.117.

2- المعجب، ص.149.
وفي نفس المعنى، يقول ابن خلكان في وفياته، حكاية عن أبي الحسن علي بن القطاع السعدي في كتاب «لمح الملح» في حق المعتمد: «أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثماداً، وأرفعهم عماداً، ولذلك كانت حضرته ملقى الرجال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه»، المجلد الرابع، ص.277.

3- والحقيقة أنه لم يكن وصف الفترة المرابطية بالظلام فقط من قبل المستشرقين، بل شاركهم في ذلك الرأي غير قليل من العرب، ومنهم الأوسيّ (حكمت عليّ) الذي ذهب إلى أنه «لم يكن دخول برابرة الصحراء الملثمين، وهكذا كان يعرف المرابطون، الأندلس ضربة سياسية قاضية للاستقلال الأندلسي حسب، بل كان كذلك كسوفاً ثقيل الظل للشعر الأندلسي وشعرائه في هذه الفترة»، الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ، ص.11.

ب- الشجاعة: وقد وصلنا من صورها غيرُ قليل، سواء على ألسنة الشعراء أم المؤرخين. فقد كان ابن عباد بطلاً من أبطالها، الذين لا يُشقّ لهم غبار. ونلمس ذلك في ما يقوله عبد الجليل بن وهبون في قصيدة يمدحه بها، مذكراً بثباته في معركة الزلاقة:

وقفتَ بحيثُ تَلحظكَ العَوالـي	**وهُـنّ إلى مـواردهـا هُيـامُ**
ولـمْ يَثبـتْ مـنَ الأشيـاءِ إلاّ	**شقيقُكَ وهوَ صارمُك الحُسامُ**
يمـانٌ في يـديْ مـاض يمـان	**فَـلا نَـابـي الـغـرارِ ولا كـهَـامُ**
ولمْ يَحملكَ طرفُك بلْ فُـؤاد	**تَـعـوَّد أن يُـخـاضَ بِـه الحِمـامُ**
ثـبـتَّ بِـه ثـبـاتَ الـقـطـبِ لمـّا	**أدارَ رحـاهُ خـطـبٌ لا يُـرامُ**
وعـادتُـك الطـعـان فإن يُـخـرّوا	**جـوادَك بالطّعـانِ فمـا يُـلامُ[1]**

والملاحظ أنه كثيراً ما كان يُعلى من شأن أبي القاسم المعتمد بن عباد في معركة «الزلاقة»، حتى لكأنه بطلها الأول وليس أبا يعقوب يوسف بن تاشفين[2]. ونُلفي هذا الأمر في غير موضع

غير أن هذا لم يمنع آخرين، ومنهم المستشرق كراتشكوفسكي من أن يكـون «أكثر دقة وعلمية حين أصدر حكمه على العصر المرابطي واصفاً إياه بأنه عصر نور وحضارة، مستدلاً على ذلك بكثرة المثقفين من شعراء وأدباء فيه»، نقلاً عن السعيد (محمد مجيد)، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الثانية، 1985، ص.61.

1- في البيت الأخير، إحالة إلى ما أصاب فرسه من طعن إلى درجة أن كبا به، فتقدّم إليه بعض من ثبت معه فرسا فركبه. يمكن العودة، في هذه الإحالة، إلى «خريدة القصر وجريدة العصر»، ص. 99.

2- ارتبطت الشجاعة لديه بالقسوة المفرطة أحياناً، مثل جميع حكام بني عباد، وعلى رأسهم المعتضد بالله، والد المعتمد، الذي كانت له خزانة «مكنونة جوف قصره أودعها هام

واحد، كما هو الحال في الفقرة التي يتحدّث فيها ابن خاقان، عن بلاء المعتمد في الزلاقة دون يوسف. والملاحظ أن السياق، كان نجدة الأخير للأندلس، بعد اجتماع الفقهاء ومشايخ الإسلام على ضرورة الكتابة إلى أمير المرابطين. ومما جاء في تلك الفقرة، تصوير ثبات ملك إشبيلية بالرغم من جراحاته «وثبت المعتمد في ذلك اليوم ثباتاً عظيماً، وأصابه عدة جراحات في وجهه وبدنه، وشُهد له بالشجاعة»[1].

ومن المُقرَّر في شجاعة المعتمد، أنها كانت مقرونة بالذكاء والحكمة السياسيين. وبالعودة إلى انتصار المسلمين في الزلاقة، فإن كبير الفضل في ذلك يعود إلى حيطة ابن عباد، الذي شكّ في أمرِ تأجيل يوم الزَّحف إلى الاثنين من قبل الأدفونش. وقد كان في شكِّه ذاك مدعاة للاستعداد على رأس أصحابه، في الوقت الذي خرج فيه يوسف والمرابطون في ثياب الزّينة للصلاة يوم الجمعة[2].

الملوك الذين أبادهم بسيفه منها رأس محمد بن عبد الله البرزالي شهاب الفتنة ورؤوس الحجاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهم الذين قرن رأسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود الحسني(...) ولما خلع المعتمد وجد في جوالق له تلك الرؤوس»، البيان المغرب، ص.206.

1- ومما يرويه المعتمد، نفسُه، شعراً عن شجاعته ما قاله أثناء اقتحام إشبيلية:

كم رمتُ يومَ نِزالهمْ ... أن لا تُحصِّنني الدُّروعُ
وبرزتُ ليسَ سوى القمي ... صِ على الحشى درعٌ دَفوعُ
أجَلي تَأخّرٍ لم يكنْ ... بهَوايَ ذُلِّي والخشوعُ
ما سرتُ قطُّ إلى القتا ... لِ وكانَ من أملي الرُّجوعُ
شِيَمُ الألى أنا منهم ... والأصلُ تَتبعهُ الفروعُ

2- يصف الأمر بكثير من الدقة المراكشي في «المعجب»، ومما قاله: «فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم بالحزم، فركب هو وأصحابه شاكي

وحين تتَّصل الشجاعة بالحِكمة السياسية، فمن الطبيعي أن يتميز حكم المعتمد بتغلُّبه على مختلف ملوك الطوائف، إلى درجة يصير معها أكثرهم بلاداً[1]،وأكثرهم جرأة في إحكام التدبير لسلطانه.

ج- الشاعرية: ارتبطت شخصية المعتمد بفعل الجمع بين سلطتي المُلْك والشعر. في هذا الجمع، ظَلّ يكمن سِرّ انتشاره بين المؤرخين والنقاد. والملاحظ أن شاعريته لم تكن ترفاً زائداً، بل كانت جزءاً أصيلاً من تكوينه الشخصي. فالشعر، قولاً وسماعاً، إلى جانب تدبير شؤون الحكم، شَكَّلا القسط الأوفر من انشغالات المعتمد، قيْد حياته، في مختلف تقلُّباتها. ويُحكى أن المعتمد لم يكن يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً «فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله».[2] وهكذا، ظَلّ كلما ذُكر المعتمد إلا وذُكر معه شعراء كبار، من أمثال ابن عمار، ابن زيدون، ابن اللبانة، ابن حمديس، الحصري، وغيرهم كثير[3]. وقد عُني كثير من الدارسين، قدامى ومحدثين، عرباً وأوروبيين، بمقطوعاته الشعرية، نظراً لما

السلاح، وقال لأمير المسلمين: صَلِّ في أصحابك، فهذا يوم تطيب نفسي فيه، وها أنا من ورائكم، وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين»، ص، ص.197 - 198.

1- وعن ذلك، نقرأ أيضاً: «ظَلّ المعتمد والدهر يؤازره ويعاضده، إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك من قبله من المتغلبين، ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم، وامتدت مملكته إلى أن بلغ مدينة مرسية..»، خفاجي (محمد عبد المعجم)، الأدب الاندلسي، التطوّر والتجديد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص.544.

2 - نفسه، ص.535.

3 - هناك كتاب يتطرق إلى هذا الموضوع لـ يكن (زهدي)، وهو بعنوان «المعتمد بن عباد وشعراء عصره»، تحقيق وتعليق يكن (محمد زهدي)، دار يكن للنشر، بيروت، 1975.

تميزت به من جودة فنية عالية[1]، وأكثر من ذلك من حِسّ إنسانيٍ رفيع، أذكته تجربة السقوط المدوي عن العرش، وكذا القضاء أسيراً بأغمات ما بقي في حياته[2].

وفي إطار نظمه الشعري، عُرف عنه طبعه وبداهته، اللذان بزَّ بهما كثيراً من شعراء عصره. وقد حفل غير قليل من المصادر بنُتَف من بدائهه تلك، وأساساً في فترة حُكْمه. وبموازاة ذلك، كان الشاعر لديه مُعضَّداً بحس نقدي ثاقب، إلى درجة غدا الشعراء يتحامونه، على حد ما جاء في قصة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم[3]، حين توجه إليه بقصيدة مادحاً، منها:

لا رَوّعَ اللهُ سِربا في رِحابِهمُ   وإنْ رَمَوْني بتَرويعٍ وإبعادِ

ولا سَقاهُمْ على ما كانَ منْ عَطشٍ   إلاّ ببعضِ نَدى كَفِّ ابنِ عبّادِ

وفي المُحصّلة، نلاحظ أن شعر المعتمد، بعد أسره، حظي باهتمام

---

1 - نقرأ لابن بسام الشنتريني، نقلاً عن وفيات الأعيان، هذا التقييم لشعر المعتمد عموماً «وللمعتمد بن عباد شعر كما انشق الكمام عن الزهر، لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة، لكان رائقاً معجباً ونادراً مستغرباً»، ص.277.

2- عبر عن هذه الحقيقة، بقوة، يكن (زهدي) بقوله: «.. وقد ذاق هوانا بعد مجد، وذلاً بعد عز، وضيقاً بعد سعة. ولكن شيئاً واحداً لا يضيع، هو هذا الجمال الذي تركه وهذا الشعر الذي خلفه، وهذا الفن الذي أبدعه، وهذا الإنسان الذي خلده، وهذه الغربة التي غناها أي غناء.»، المرجع السابق، ص. 14.

3- ومما ورد في تعليق الشاعر وهو يروي لقاءه بالمعتمد «ثم أخذ البطاقة وجعل يجيل النظر والفكر فيه القصيدة، وأنا مترقب لنقده، لكونه في هذا الشأن من أئمته، وكثيراً ما كان الشعراء يتحامونه لذلك إلا من عرف من نفسه التبريز، ووثق بها،..»، نفح الطيب، المجلد الرابع، ص.571.

بالغ، نظراً لما حازه من صدق فني، وحس إنساني عميق، مُستوجباً بذلك التأثر والتعاطف من لدُن قرّائه على تعاقب العصور. وبالطبع، تندرج في هذا الإطار قصائده، وقصائد الشعراء الذين وفدوا عليه، زائرين أو مُواسين أو راثين. ولا يوازي تلك القصائد صدقاً وحرارة في الشعر العربي، إلا «روميات» أبي فراس الحمداني، التي تظلّ قراءة قصائد المعتمد في ضوئها حاجة قائمة الاعتبار.

- 6 -

إن رجلاً بمواصفات المعتمد، خصوصاً أنه ملك، جعلت الأنظار والأفئدة تهوي إليه، بوصفه النموذج المثالي الحي للشخصية العربية[1]، التي لا ينبغي أن تنكسر تحت أي ضغط، سواء كان من قِبَل الأدفونش الروميّ أم يوسف البربريّ.

ولا ننسى أن شاعرنا، إضافة إلى ذلك، ظَلّ يمثل الفئات الأرستقراطية القائمة في المجتمع الأندلسي، وهي فئات مثقفة «لم تكن ترى في يوسف الأمير المرابطي الذي لم يكن يعرف من العربية إلا قليلاً، لم تكن ترى فيه إلا بربرياً فظّا قَدّم دلائل كافية على جهله وقِلّة

1- يترجم شخصية المعتمد المثالية قصيدة لابن اللبانة، نقف منها، بالتحديد، عند هذين البيتين:

يُغيثكَ في محل، يُعينكَ في ردى ... يَروعُك في ردى، يروقُكَ في بـــردِ

جَمالٌ وإجمالٌ وسبقٌ وصولـــةٌ ... كشمسِ الضُّحى، كالمُزنِ، كالبرقِ، كالرّعدِ

القصيدة، ككل، في خريدة القصر، ص.161.

ثقافته»[1]. وبالمقابل، جسّدت حياة أبي القاسم المعتمد، وحياة ملوك الطوائف جميعاً، مختلف مظاهر الأرستقراطية: ثقافة عالية وتذوق للفنون، مصحوبان ببذخ وترف ومجون. وبالرغم من كل ما كان يتهددها، شمالاً وجنوباً، فإنها لم تكن بقادرة على التنازل، قيْد أنمُلة، عن نمط عيشها ذاك[2]. وأعتقد أن في ذلك النمط، ارتسمت تلك المُفارقة الصارخة، لدى كثير من المؤرخين والمثقفين، بين:

- دولة التقشف، حيث لا تُسمع إلا أصوات الفقهاء، وصليل السيوف.
- دولة الحضارة، حيث تسود مساجلات العلماء، ونشيد الشعراء، وغناء أهل الموسيقى[3].

وفي إطار التراجيديا التي عرفتها الفترة المعنية، آل الأمر إلى انتصار دولة الفقهاء المرابطية، بدعم من أهل الدين في المشرق والمغرب،

1- الأوسي (حكمت عليّ)، المرجع السابق، ص.11.
وتحكى حكايات عن قلة ثقافة يوسف، منها رده على قصيدة ابن زيدون.. وهي أمور لا تقلّ جهلاً، هي الأخرى، بحقيقة ملك أسس دولة كبيرة منظمة، اعتبرت إمبراطورية لا تُجارى في زمانها.

2- وهناك قصة في الموضوع تُعبِّر عن ذلك النمط من الحياة، مفادها أن يوسف سأل عن أحوال المعتمد في لذاته «هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات فقيل له : بل كل زمانه على هذا» ولعلّ ما استنتجه يوسف من أمر المعتمد، تلخصه عبارته التالية بدقة: «الذي يلوح من أمر هذا الرجل، يعني المعتمد، أنه مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأخذه بالظلم وأخرجه في هذه الترهات، وهذا من أفحش الاستهتار...» ، وفيات الأعيان، المجلد الرابع، ص. 477.

3 - العبارات للمستشرق دوزي، نقلاً عن كتاب «الشعر العربي في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص.61.

وعلى رأسهم أبو حامد الغزالي.
وبالتركيز على إشبيلية، عاصمة ملك بني عباد، يذكر المؤرخون أن الحياة فيها مثلت مختلف تفاصيل العبث والمجون، في وسط اعتُبِر طبيعياً لممارسة ذلك النوع من الحياة، وهو وسط الأرستقراطية الإشبيلية. فَمناخ الاعتدال في المدينة، إضافة إلى حسن مبانيها وكثرة بساتينها، وكذا نهرها الأعظم الذي يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم ينحسر، والذي فيه يقول ابن سفر:

شَقَّ النّسيمُ عليهِ جيبَ قَميصهِ فانْسابَ مِنْ شَطّيهِ يَطلبُ ثاره

فتضاحكتْ وُرقُ الحَمام بدوحِها هُزءا فضَمَّ منَ الحَياءِ إزاره

كل ذلك، قام بتهييء الظروف لبروز نمط معين من الحياة، ضُرب بالإشبيليين المثل، بحسبه، في الخلاعة «وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة»[1].

في هذا المناخ المُترف، كانت يوميّات أبي القاسم تضجّ بالقصص الغريبة عن مظاهر سقوطه في أتون البذخ واللذة. ومن تلك المظاهر خصوصاً، قصّته مع زوجته «اعتماد الرميكية»، التي صنع لها بركة واسعة في حديقته «طينها الطيب، وماؤها ماء الورد، لتمشي بها الأميرة حافية بين جواريها»[2].

---

1 - نفح الطيب، المجلد الأول، ص.159.
والعبارة المنقولة هي لصاحب مناهج الفكر حسب المقري.

2 - الجارم (عليّ)، شاعر ملك، قصة المعتمد بن عباد الأندلسي، دار المعارف بمصر، ط2، 1953، ص.82.

يمكن القول، انطلاقاً مما سبق، إن المعتمد بن عباد اختزل في شخصه عدة أطراف، بما كان يُمثِّله من قيم قومية واجتماعية وثقافية وبيئية. ويمكن تلخيص تلك الأطراف في:

- العرب من أصول مشرقية، في مقابل البربر، أدارسة ومرابطين.
- الأندلسيين في سعتهم ودعتهم في مقابل فقر المغاربة، وشظف عيشهم[1].
- الأرستقراطية الأندلسية المثقفة، في مقابل الأعراب البدو غير المتعلمين.
- ثقافة الأندلس وتسامح أهلها، في مقابل فِقه المغاربة وتعصُّبهم.

إن عناصر ذلك التقابل الحادّ بين هُويتين، جعل الأندلسيين، بفعل تمكّن المرابطين من بلادهم، ذوي روح وطنية، ترى في كل ما هو أندلسي مدعاة للعزّ والافتخار[2].

نستطيع القول إن الاعتراف بسقوط المعتمد المعنوي، كان سيعتبر- لو تَـمّ- سقوطاً لتلك الـروح القوية، التي اختزلت قيماً راكمها الأندلسيون، بمختلف أعراقهم، منذ جواز طارق بن زياد إليها. وقد ساعدت أَنَفَة صاحبنا، المتجلية في عدم استعطاف أبي يعقوب يوسف، في إذكاء تلك الروح، على الرغم من اشتداد مِحنة الملك

1- يُروى عن المعتمد قائلاً للمعتصم بن صمادح في وصف البربر: «إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم»، المعجب، ص، ص 202 - 203.

2- مثالان على ذلك، رسالتا الشقندي وابن حزم.

الأسير[1]. ولعلّها نفس الروح التي كانت تغض الطرف عن كثير من عيوب المعتمد، ومنها بالتحديد:

- أداؤه الجزية للأدفونش ملك الروم، والاستعانة به على خصومه من أمراء الطوائف[2].

- قتل رسول الأدفونش وهو في حوزته، وإن كان الرسول قد ماحك المرسل إليه في تمام الجزية، وهو أمر لا يماشي أخلاق الملوك، وما تجري به الأعراف في ما بينهم وقتي السلم والحرب.

- بشاعته في الفتك بصديقه الشاعر ابن عمار بيديه، على الرغم من استعطاف الأخير له بقصائد يلين لرقَّتها الحديد، أو كما قال عبد الواحد المراكشي «قصائد لو توسَّل بها إلى الدهر لنزع عن جوره، أو إلى الفلك لكفّ عن دوره، فكانت رِقى لم تنفع، ودعواتٍ لم تُسمع، وتمائم لم تنفع»[3]. ومن تلك القصائد، قصيدته التي يقول

---

1 - وخير معبر عن ذلك قصيدته، التي يقول في بعض أبياتها:

لمّا تماسكتِ الدموع   وتَنَهْنَهَ القلبُ الصّديعُ
قالوا الخُضوعُ سياسةٌ   فليبدُ منكَ لهمْ خُضوعُ
وألذُّ من طَعمِ الخُضو   عِ على فمي السُّمّ النقيعُ
إن تستلبْ عنِّي الدُّنا   مُلكي وتُسلمني الجُموعُ
فالقلبُ بين ضُلوعِه   لم تُسلمِ القلبَ الضُّلوع
2 - لمْ أُستلبْ شرفَ الطِّبا   عِ أيُسلبُ الشَّرف الرفيعُ

- والحقيقة أن أمراء الطوائف، في معظمهم، كانوا يستعينون على بعضهم البعض بالروم.

3- المعجب، ص.185.

وفي السياق ذاته، يقول بن خاقان(أبو نصرالفتح بن محمد): «وكتب إليه بهذه القصيدة التي ينساق إلى مثلها الرضي وينقاد، وتنحل بها سخائم الغوائل وتشفع الأحقاد»،

في مطلعها:

سَجاياكَ إن عافيتَ أنْدى وأسْجحُ وعذرُك إنْ عاقبتَ أجْلى وأوْضحُ

- 7 -

أكّدنا أن مسار حياة المعتمد طَبَعَها الانقلاب، وهو أمر أشار إليه غير قليل ممّن تفحّصوا سيرته. ولأن قصة ذلك المسار كانت شيّقة، فقد نالت اهتمام العديدين، ممّن اطلعوا عليها على توالي الأَزمنة والعصور. وقد لخّص هذا الانقلاب أحسن تلخيص، وصفُ المراكشيّ ما آلت «إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة، والضعة بعد الرفعة، والقبض بعد البسط»[1].

وقد سلَّط كثير من المؤرخين والشعراء عناياتهم، إلى وصف مظاهر الانقلاب في حياة ابن عباد، منذ اقتحام القصر عليه. وقد شُبّه الاقتحام بيوم الكائنة العظمى، والطامّة الكبرى، حيث «الناس (...) قد خامرهم الجزع، وخالط قلوبهم الهلع، يقطعون السبل سياحة، ويعبون النهر سباحة، ويتولجون مجاري الأقذار، ويترامون من شرفات الأسوار...» [2].

ويمكن استعراض مجريات الانقلاب، من حياة الملك إلى حياة

قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف خربوش، مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، 1989، الطبعة الأولى، الجزآن 1و2، ص.285.

1- المعجب، ص.240.

2- نفسه، ص.207.

الأسر، على النحو التالي:

-أسر المعتمد «أخذ هو قبضاً باليد»[1]، على حد تعبير المراكشي، ونهب قصوره.

-استعطاف ابنيه المعتد بالله والراضي بالله للنزول عن حصنيهما، فأما الأول فقد قُبض على كل ما يملك، وأما الثاني فقد قُتل عند خروجه غيلة، وتمّ إخفاء جسده[2].

-جمعه، بمعية أهله، في سفين كأنهم أموات تحت مرأى «الناس وقد حشروا بضفتي الوادي، يبكون بدموع الغوادي، فساروا والنوح يحدوهم، والبوح لا يعدوهم»[3].

ترحيله إلى «طنجة»، ثم إلى «مكناسة»، حيث أقام أشهراً «إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات، فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد، رحمه الله، ودفن بها فقبره معروف هناك»[4].

- 8 -

إن التناقض الذي شهدته حياة ابن عباد، بفعل انقلابها من حال لحال، هو نفسه التناقض الذي شهدته روايات المؤرخين عنه، وبالأخص في ما يتعلّق بظروف أسره. ويمكن أن نكتفي من ذلك

1- نفسه، ص.208.

2- نفسه، ص.209.

3- وفيات الأعيان، المجلد الرابع، ص. 283.

4- المعجب، ص.214.

بروايتين مختلفتين، عن كيفية تعامل المرابطين معه، وهو تحت الأسر بغاية الترحيل.

أ- الرواية الأولى تذكُر عناية آسريه به وبأهله، وهي لـ ابن بسام على النحو التالي: «ثم أُخرج المعتمد في ذلك اليوم إلى أن أطلقت إليه جميع أمهات أولاده وبنيه، وكل ما يُختصّ به من أقاربه وذويه، وعُمِّر بهم مركب فركبوا البحر ورُزقوا السلامة فيه، إلى أن وصلوا إلى أمير المسلمين وناصر الدين، أبي يعقوب بن تاشفين، رحمه الله، فبقوا هنالك في كنفه وذرى فضله، تحت إحسان عظيم، وبذل نائل جسيم، حتى انقرضت هنالك أيامه، ووافاه حِمامه، بعد مرض شديد أصابه، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين، وكان مولده في ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين»[1].

ومما يُعَضِّد هذه الرواية الحسنة، ترْكُ أبي القاسم يتصل بالشعراء بحرية، مادحين إياه، ومُعَرِّضين بيوسف أحياناً أخرى، دون أن يَمَسَّهم أذى، سواء في طنجـة أَو مكناس أو أغمات[2]. إضافة إلى ذلك، يُحكى عن علاج الطبيب الوزير أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر السيدة الكبرى، مع أن سياق مجيئه إلى مراكش كان بغاية علاج أمير المرابطين يوسف أصلاً. فلولا رضى الأخير، ما كان الطبيب

1- ابن بسام الشنتريني (أبو الحسن بن علي)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، القسم الثاني، المجلد الأول، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1978،ص، ص.56 - 57.

2- يقول عن هذا الأمر العلاّمة كنون في نبوغه: «وقد اجتمع به شعراء طنجة وأدباؤها وطارحوه أحاديث الشعر والأدب كما وفد عليه جُلّ أدباء الأندلس وهو في أغمات، وكانوا يقضون معه الأوقات الطويلة»، ص.63.

ليعودَ السيِّدة في أغمات، بعد أن كاتبه المعتمد في الأمر.
ب- أما في ما يتعلّق بالرواية الثانية، فهي تركز على المحن التي قاساها ابن عباد منذ اقتحام قصره. ونجد صدى لهذه الرواية في ما قاله عبد الواحد المراكشي: «ورُحِّل بالمعتمد وآله، بعد استئصال جميع أحواله، ولم يصحب من ذلك كلِّه بلغة زاد، فركب السفين، وحل بالعدوة محلّ الدفين»[1].

وللإشارة، فإن هذه الرواية تأتي في سياق ما تَعرَّض إليه مَلك إشبيلية من قهر ومعاناة، جراء انتهاب قصوره، وأكثر من ذلك اغتيال ابنه الراضي بالله، والقبض على المعتدّ بالله بعد أن سُلب ما كان يملكه [2]. ومما جاء في ذلك السياق «فشنت الغارة في البلد، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبداً ولا لبداً، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحا»[3].

ومما يُزكّي هذه الرواية، بالأساس، ما نُظم شعراً من قِبَل المعتمد، ومن قِبَل الشعراء ممن خالطوا بلاطه، وخصوصاً شاعره ابن اللبانة[4]، الذي قال فيه صاحب المعجب: «وورد عليه أغمات، أبو بكر بن

1- المعجب، ص.211.

2- للمعتمد شعر كثير في رثاء ولديه، أي الراضي والمأمون، منه هذه القصيدة التي نختار منها البيتين التاليين:

يَقولونَ صبراً، لا سبيلَ إلى الصَّبرِ ... سَأبكي وأبْكي ما تَطاولَ منْ عُمري

هوى الكوكبانِ الفتحُ ثمَّ شقيقُـــهُ ... يزيدُ، فهل بعدَ الكواكبِ من صَبـْرِ

3- المعجب، ص.208.

4- هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية، وهي على ساحل البحر الرومي.

اللبانة المُتقدّم الذكر، قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمى، فسر المعتمد بوروده»[1]. وبالعودة إلى تلك القصائد، نلاحظ أنها تركز على ما يأتي:

1- اشتغال أحد أبنائه بالصياغة، وقد عَبّرَ عن ذلك ابن اللبانة في إحدى قصائده، منها:

شَكاتُنا لكَ يا فخرَ العُلا عَظُمَتْ   والرُّزْءُ يَعظُمُ ممَّنْ قَدرُهُ عَظُما

طُوِّقْتَ من نائباتِ الدَّهرِ مُخْنُقَةً   ضاقتْ عَليك وكَمْ طَوَّقْتَنا نعَما

وعادَ طوقُكَ في دُكانِ قارعةٍ   مِنْ بعدِ ما كُنتَ في قَصرٍ حَكى إِرَما[2]

2- اشتغال بناته بغزل الصوف للناس، وعنهنّ يقول المعتمد:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مَسروراً   فساءكَ العيدُ في أغماتَ مَأسورا

تَرى بناتكَ في الأطْمارِ جائعةً   يَغزلنَ للنّاس، ما يَملكنَ قِطميراً

يطأْنَ في الطّينِ والأقدامُ حافيةٌ   كأنَّها لمْ تَطَأْ مِسكاً وكَافورا[3]

3- معاناته من جراء القيد، وعن ذلك يقول هو نفسه:

قَيدي! أمَا تَعلَمُني مُسلماً   أَبيْتَ أنْ تُشفقَ أو تَرحما

دَمي شَرابٌ لكَ واللّحم قَدْ   أكلتَهُ، لا تَهشم الأعظُما

يُبصرُني فيكَ أبو هَاشِم   فينثني والقلبُ قدَ هُشّما![4]

4- عدم تمكينه من خباء، بعد أن اعتذرت له حواء بنت تاشفين بأن ليس لديها شيء منها. وفي هذا الأمر، يقول بألم شديد:

1- المعجب، ص.231.

2- نفح الطيب، المجلد الرابع، ص.97.

3- ديوان المعتمد بن عباد، ص، ص.168 - 169.

4- الديوان، ص.181.

هُـم أوْقــدوا بـينَ جنبيْكَ نــاراً أطالوا بها في حَشاكَ استعــاراً

أمَـا يخْجلُ المجدُ أن يُرحــلو كَ ولمْ يُصحبوكَ خباءً مُعــاراً

فقدْ قَنّعوا المجدَ إنْ كــانَ ذاكَ وحاشاهم- منكَ خِزياً وعَــارا[1]

5- مكابدة الشّوق إلى بلاده، وإلى الحياة في قصوره، ومن ذلك ما نختاره من هذه الأبيات:

مضى زمنٌ والملكُ مُستأنسٌ بـه وأصبحَ منهُ اليومَ وهوَ نَفــورُ

فيا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلـةً أمامي وخلفي روضةٌ وغديــرُ

بمنبتةِ الزّيتونِ مُورثةِ العُلــى يُغنّي حَمـامٌ أو تَـرنُّ طُيــورُ

بِزاهرِها السّامي الذُّرى جادهُ الحَيا تُشيرُ الثُّريّا نحونا ونُشيــرُ

ويَلحظُنا الزّاهي وسَعْدُ سُعـودهِ غيورين، والصّبُّ المُحبُّ غَيـوُر[2]

زيـادة علـى مـا سـبق، هنـاك حكايـة أثّـرت فـي المعتمـد، حسـب مـا حكـــاه ابـن خاقـان. وتتمثـل هـذه الحكايـة فـي إطـلاق سـراح طائفـة مـن أهـل فـاس، وُصِفـوا بكونهـم «قـد عاثـوا فيهـــا (أي فــاس) وفسـقوا، وانتظمـوا فـي سـلك الطغـاة واتسـقوا،..»[3]. فــي حيــن ظَـلّ المعتمــد أسـيراً، بعـد أن اسـتأنس بأعضــاء مــن تلــك الطائفــة. ومِمّــا جــاء مــن عبــارة فــي وقْــع ذلــك علــى صاحبنــا، مــا يلــي «فــكان المعتمــد رحمــه اللــه يتسـلى

1- نفسه، ص.159.

2- نفسه، ص.172.

3- القلائد، الجزآن1و2، ص100.

بمجالستهم، ويجد أثر مؤانستهم، ويستريح إليهم بجواه، ويبوح لهم بسره ونجواه، إلى أن شفع فيهم، وانطلقوا من وثاقهم، وانفرج لهم مبهم أغلاقهم، فبقي المعتمد في مجلسه يتشكى من ضيق الكبل...»[1].

- 9 -

توفَّرتْ لقصة المعتمد، منذ اعتلائه عرش إشبيلية، عدة عوامل ساهمت في منح كثير من مجرياتها عناصر التشويق والإثارة. ويمكن تلخيص ذلك، اعتماداً على ما سبق ذكرُه، في ما يأتي:

- درامية الأحداث بفعل الانقلاب الحاصل في مجرياتها من حال إلى آخر نقيض.
- رصد حياة القصور بكل ما تعرفه من بذخ، وكذا من دسيسة ومؤامرات[2].
- التركيز على التناقض في الهويات، خصوصاً بين العرب والبربر، بين الأندلس والمغرب.
- توظيف الأسلوب القصصي في سياق فجائعيّ/ قياميّ،

1- نفسه، ص،ص.100 - 101.

2- يمكن أن نتحدّث، في هذا الإطار، عن دسيسة قتل ابن عمار، بعد أن أوشك المعتمد على العفو عنه. كما يمكن أن نتحدّث، أيضاً، عن دسيسة المعتصم بن صمادح لتأليب رأي يوسف على المعتمد. والدسيستان حاسمتان في تغيير مجرى الأحداث بين الأطراف.

يركـز علـى عناصـر المبالغـة المهولـة شـعراً ونثـراً.

- في علاقة بما سبق، تم استخدام الرؤيا /الحلم لترسيخ الاعتقاد بحتميّة الأحداث المُرعبة، وكأنها من تدبير قوى غيبية قاهرة.

- إشاعة أجواء البكاء والنّحيب، في سياق ما يذهب بالأحاسيس إلى أقصى مدى في التأثر والانفعال.

- استحضار مختلف القيم الإنسانية المتضاربة، بغاية خلق أجواء الصراع بين طرفي الخير والشرِ.

- اعتماد أسلوب العِبَر والحِكَم، باعتبار أهميته في التأثير على النفوس والعقول.

إن العناصر السابقة، خصوصاً حين يكون مجال حركتها الأساس القصر، تتكاثف لِتُحيل إلى فضاء سردابيّ، بما يشمله من غرف سرية، وطرق ملتوية وحدائق خلفية. وأعتقد أن فضاءً من هذا القبيل، يصير مهيأ أكثر ليرادف فضاء الدّسيسة والاغتيال. يصير هذا الأخير أشْبَهَ ما يكون بفضاء الغابة في أجوائه. والأمثلة التي وصلتنا عن ذلك عديدة، مما حوَته كتب التاريخ والتّراجم، منها «حديقة الرؤوس الآدمية» التي أنشأها المعتضد والد المعتمد، نكاية بأعدائه البربر، خصوصاً من بني حمّود. أما في ما يخصّ شاعرنا، فقصته مع ابن عمار طريفة غريبة. ويمكن القول إن مسار المعتمد يكاد يطابق مسار صديقه وشاعره الأثير، في كثير من جوانبها ومآلاتها. إن الأمر، هنا، يتعلّق بقصة ضمن قصة أكبر، لعبت فيها الدراما الإنسانية الدور الأكبر والمتكرر على مَرِّ الحقب والعصور.

- 10 -

وبالتّركيز على قصة ابن عمار القتيل، يمكن القول إنّ تشابهها مع قصة المعتمد تنهض على أساس سلطتيْ الشعر والحُكْم[1]. أما مقومات التشابه، فهي تستند إلى استخدام الرؤيا، رؤيا ابن عمار الشخصية التي مفادها أن صديقه ابنَ عبّاد قاتلُه لا محالة[2]. ولعلّ وجود تلك الرؤيا، كان من مهمته التأشير إلى توقُّع انقلاب دراماتيكي في الأحـداث، بشكل جعل هذه الأخيرة تنطبع بطابع عجائبي/غرائبي.

بفعل الانقلاب ذاك، انتقل ابن عمار من حال إلى حال: من العِزّ والمجد، بقوة صداقته لملك إشبيلية، إلى الذُّل والهوان. ويمكن التمثيل بعدة صور، نُوزِّعها على الحالَيْن معاً:

- حال العزّ والمجد: ونستند في توصيفه إلى نصّيْن، هما:

1- هو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري.

2- «فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه: لتقضين رأسك معي على وساد واحد- تعجب- فكان ذلك. قال ابن عمار: فهتف بي هاتف في النوم يقول: «لا تغتر أيها المسكين؛ إنه سيقتلك ولو بعد حين- تعجب- قال: «فانتهبت من نومي فزعاً، وتعوذت، ثم عدت، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى، فانتبهت، ثم عدت، فسمعته ثالثة؛ فانتبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض الحصر، وقصدت دهليز القصر مستخفياً به حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت (...) فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها، فضحك وقال: يا أبا بكر، أضغاث أحلام، هذه آثار الخمار، ثم قال: وكيف أقتلك؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟»، المعجب، ص، ص.175 - 176.

1- النص الأول: نقتطفه من «الخريدة»، ويقول فيه العماد الأصفهاني عن علاقة المعتمد بابن عمار القوية: «كان خصيصاً بالمعتمد في زمن إمارته وكلاهما نقي العذار، من ثوب الوقار، فلما صار الأمر إليه، حافظ عليه، وامتزج به امتزاج الماء بالعقار»[1].

2- النص الثاني: نأخذه عن صاحب المعجب، ومما جاء فيه: «وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب؛ وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه، على ما كانت العادة جارية به، إلّا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبرّ له على المعتاد، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه: لتضعن رأسك معي على وساد واحد! فكان ذلك»[2].

- حال الذُّلّ والهوان: ونرجع، في هذا الإطار، إلى ما حكاه عبد الواحد المراكشي، حين تَسلَّم ابن عباد صديقَه السابق:

1- النص الأول: وفيه يتم استعراض خبر اعتقال ابن عمار، ومن ثُمَّ المجيء به إلى إشبيلية مُقيَّداً «وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده؛ فخرجوا به حتى وافوا قرطبة، ووافق ذلك كون المعتمد بها، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه، على بغل بين عدلي تبن، وقيوده ظاهرة للناس»[3].

2- النص الثاني: وفيه يتم التركيز على كيفية قتل المعتمد لابن عمار شخصياً «فخرج المعتمد حنِقاً وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة

1- الخريدة، ص.82.

2- المعجب، ص. 174.

3- نفسه، ص. 184.

التي فيها ابن عمار، فلما رآه علم أنه قاتله، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تُثقله، حتى انكبّ على قدمي المعتمد يُقبِّلُهما، والمعتمد لا يثنيه شيء، فعَلاه بالطبرزين الذي في يده، ولم يزل يضربه حتى برد»[1].

بين الحالين النقيضين، هناك عنصر أساسي أدّى إلى الانقلاب الدراماتيكي، الذي لمسنا بعضاً من صُوره حسب ما ورد إلينا على لسان المؤرخين. ولأن الأمر يتعلّق بالطموح إلى السلطة دائماً، فإن هذه الأخيرة تجسَّدت في نوعين:

-سلطة الحُكْم، وتجلَّت في طمع ابن عمار في حكم «مرسية»، بعد أن تولّى فتحها لمخدومه المعتمد. وبالفعل، فقد تمكّنَ من حكمها لفترة قصيرة، إلا أن عدم ترسيخ سلطانه عليها، انتهى به طريداً يُطلب رأسُه، إلى أن تمكّن منه صاحبُه في الأخير[2].

- سلطة الشعر، وتجلَّت في الأبيات التي وجهها ابن عمار إلى المعتمد هاجياً[3]. وأعتقد أن سلطة الشعر التي امتلكها ابن عمار، عن جدارة واستحقاق، دون سلطة الحكم بطبيعة الحال، كانت

1- نفسه، ص.190.

2- يصور هذا الوضع ابن عمار شعرياً في الأبيات التالية:

أصبحتُ في السّوقِ يُنادى على رأسي بأنواعٍ منَ المالِ

والله ما جارَ على مالهِ منْ ضمني بالثّمن الغالي

3- يقول الأصفهاني عن هذه السلطة، أي شاعرية ابن عمار، معلقاً: «وهو وأبو الوليد بن زيدون في حسن الشعر فرسا رهان، ورضيعا لبان، وقد ذكر أكثر أدباء الأندلس أنهما أشعر أهل عصرهما»، الخريدة، ص.71.

السبب في هلاكه، نظراً لقوة الأبيات وقسوتها، خصوصاً أنها تركز على اعتماد زوجة المعتمد. والأبيات المعنيّة نثبتها، بالنظر إلى دلالتها، رغم طولها النسبي[1]:

ألا حي بالغرب حيا حِلالاً — أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالا

وعرِّجْ بيومين[1] أُمِّ القُرى — ونَمْ، فعسى أنْ تَراها خَيالا

لِتسألَ عن ساكنيها الرماد — ولمْ تَرَ للنّار عليْها اشْتِعالا

أيا فارسَ الخيلِ يا زيْدَها — حميتَ الحمى وأبَحتَ العِيالا

أراكَ تُورِّي بحبِّ النِّسا — وقِدماً عَهدتك تهْوى الرِّجالا

تَخيَّرتَها منْ بناتِ الهِجان — رُميكيّةً لا تُساوي عِقالا

فجاءتْ بكلِّ قَصيرِ الذراعِ — لَئيمِ النِّجارينِ عَمّاً وخَالا

بصُفرِ الوُجوهِ كأنَّ أُستَها — رماهُم فَجاؤوا حَيارى كَسالى

قِصار القُدودِ ولكنَّهمْ — أَقامُوا عَليها قُروناً طِوالا

إضافة إلى ذلك، يرى ابن خلكان أن بيتين آخرين كانا السبب الرئيسي في وغور صدر ابن عباد على صديقه:

مِمّا يُزهِّدني في أرضِ أندلسٍ — تَلقيبُ مُعتضدٍ فيها ومُعتمدِ

ألقابُ مَملكةٍ في غيرِ مَوضعِها — كالهِرِّ يَحكي صَولةَ الأسَدِ

1- نفسه، ص.82 - 83.

2- كما جاء في «الخريدة» عن «يومين» ما يلي: «قرية بالأندلس كانت أولية المعتمد منها، ينكره بها»، ص.82.

-11-

في المُحصِّلة، نقول إن ابن عمار تميَّز على مستوى نظم الشعر، إلا أنه لم يُكتب له النجاح في الظفر بالحُكم. وبالطبع، كان من نتائج هذا الاختلال بين السلطتين، أن قُتل شرّ قِتلة بيد من توافر فيه فعل الجمع بينهما[1]. وهكذا، انتصر الحاكم في ابن عباد على الشاعر في ابن عمار، على الرغم من قصيدة الاستعطاف القوية، تلك التي لم تستطع أن تقف حائلاً دون تنفيذ المعتمد حكمه القاسي فيه. والقصيدة المعنية طويلة، نثبت منها، بتصرف، الأبيات التالية[2]:

سجاياكَ، إن عافيتَ أنْدى وأسْجحُ — وعذرُك إن عاقبتَ أجْلى وأوْضحُ

وإن كانَ بينَ الخُطّتينِ مَزيّة — فأنت إلى الأدْنى منَ اللهِ تَجنحُ

حَنانيْكَ في أخْذي برأيكَ، لا تُطعْ — عِدايَ، ولو اثنوْا عليكَ وأفصحوا

وماذا عسى الواشونَ أنْ يتزيَّدُوا — سِوى أنّ ذنبي واضحٌ مُتصحِّحُ

نعمْ ليَ ذنبٌ غير أنّ لحِلمه — صفاةٍ يَزِلُّ الذّنبُ عَنْها فيسفحُ

1- قال عنه ابن وهبون بيتاً فيه مفارقة عجيبة:

عَجباً لهُ أَبكيهِ مِلءَ مَدامعي — وأقولُ لا شُلَّتْ يمينُ القاتلِ

2- المعجب، ص، ص. 185 - 186.

ولما وردت القصيدة على المعتمد، رد على أحد البغداديين حين جعل الأخير يزري على قوله:

وبي ضلوعي من هواه تميمة — ستنفع لو أن الحمام يجلح

رد عليه كالتالي: «مهما سلبه الله المروءة والوفاء، فما سلبه الفطنة والذكاء، إنما اقتبس- قلب- بيت الهذلي، فأحسن ما أراد:

وإذا المنية أنشبت أظفارها — ألقيت كل تميمة لا تنفع

قلائد العقيان، الجزآن1و2، ص.288.

وما يزيد من درامية حدث القتل، أن ابن عمار لقي حتْفه بنفس الطبرزين الذي كان الأدفونش قد أهداه إليه، ثم أهداه القتيل إلى المعتمد في وقت سابق، بل الأكثر غرابة من ذلك، أن ملك إشبيلية هـو، نفسه، من «أمـر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك»[1].

إن كل من اطِّلع على قصة الرَّجليْن، يجدها غريبة في كثير من جوانبها. والحقّ أن هذا ما انتهى إليه عبد الواحد المراكشي، حين كان تعليقه على النحو التالـي «ولابـن عمار هذا أخبار عجيبة عُنِي بجمعها أهـل الأنـدلـس». فهل يكمن العجب في خيانة الأخير للمعتمد، حين طمع في الاستفراد بمرسية؟ هل يكمن في الهجاء المُرّ الذي وجهه إليه، خصوصاً حين مسّه في شرفه وكبريائه الملوكيّ؟

كان وقوفنا كافياً عند مثل هذه الأمـور، وهي لا تحتاج إلى أكبر دليل. ولكن، مع ذلك، يبقى السؤال التالي مُشرَّعاً: هل تكون، هناك، دوافع أخرى للقتل غير التي ذُكرت؟ إذا ما رجعنا إلى التأمل في ثنايا بعض النصوص، سواء مما ورد على لسان الشاعر القتيل، أم على لسان غير قليل من المؤرخين، سنجد أنفسنا مُلزمين بالوقوف المُتريِّب عند بعض العبارات المُحيلة إلى قوة العلاقة «الحميمة» التي ربطت الشاعرين برباطها. ومن ذلك، نذكر ما قدرنا على الانتباه إليه:

- «أقسم المعتمد عليه: لتضعن رأسك معي على وساد واحد».

1 - المعجب، ص.190.

- «وامتزج به امتزاج الماء بالعقار».

- أراك تـــوري بـحـب الـنـسـا   وقـدمـا عهدتك تـهـوى الـرجـالا

- «فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة، وساءت السمعة بينهما... فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما»[1].

- «فاستمرت ولاية ابن عمار عليها(أي شلب Silves) إلى أن اشتدّ شوق المعتمد إليه، وضعف عن احتمال الصبر عنه، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره؛ فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد»[2].

- «فاستدعاه المعتمد، وقرّبه أشدَ تقريب، حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه»[3].

- «فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حدث ابن عمار أقبحَ نشر، وزادوا فيه زيادات قبيحة صُنت هذا الكتاب عن ذكرها، فبلغ المعتمد ذلك..»[4].

إذا ما قرأنا العبارات السابقة في ضوء الأخيرة، وهي للمراكشي جاءت في سياق التعرّض للسبب المباشر في قتل ابن عمار، أي إفشاء ما دار بين الأخير والمعتمد، في اللحظات الأخيرة، حين ترقق الأسير لآسره، حتى كاد الأخير يعفو عما تقدّم من ذنب صاحبه.. حين نقرأ ذلك، بعضه في ضوء بعض، نفهم أن ما أفاض كأس

1- نفسه، ص. 174.

2- نفسه، ص.176.

3- نفسه، ص.174.

4- نفسه، ص.189.

الغضب، هو تلك الزيادات التي وُصفت بالقبيحة، إلى حد إعراض المراكشي عن ذكرها، صوناً لحرمة كتابه. يبدو أن، هناك، زيادات أزعجت أبا القاسم، ولو على ألسنة، ليس بينها لسان ابن عمار بالطبع[1]. هل هي من طبيعة أخلاقية، مثل ما ينِمُّ عن ذلك، ولو بشكل مُضمر، تعليق المراكشي؟

مما لا شك في أن تلك الزيادات، كانت قاسية بحق المعتمد أكثر من ابن عمار، وإلا ما كان ابن عباد يُصَفِّي صديقه، بسرعة، في لحظة غضب. وما يفسر أنه كان تحت تأثيرها فعلاً، سرعة ندمه على فعله «الشنيع»، إضافة إلى الصلاة عليه، ودفنه بالقصر المبارك.

-12-

إن تشابه مصير المعتمد ومصير ابن عمار، كرَّسْته الخاتمة المأساوية التي تعرّضا لها معاً. ويبدو أن ما يفسر تلك الخاتمة، انطلاقاً مما حظيت به من اهتمام على توالي الحقب، أهمية الشخصين معاً، سواء على المستوى السياسي، أم المستوى الأدبي. وبين أيدينا

1- مسؤولية ابن عمار تجلّت في أنه كتب إلى الراضي بالله يخبره بما دار بينه وبين والده، فصادف أن كان بحضرة الراضي«قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحن قديمة؛ فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم: ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص(...) فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر (...) فبلغ المعتمد ذلك، فأرسل إلى ابن عمار وقال له: هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار، فقال له: الورقتان اللتان استدعيتهما، كتبت في إحداهما القصيدة، فما فعلت بالأخرى؟»، نفسه، الصفحة نفسها.

إشارات مؤكِّدة لتلك الأهمية، منها ما ذكره ابن تاشفين حين عَدَّ المعتمد أحد رجلي الأندلس، أي إضافة إلى المعتصم بن صمادح. ومن جهة أخرى، نجد نفس الإشارة تكررت على لسان الأدفونش، لكن لتزكي ابن عمار هذه المرة، باعتباره رجل الجزيرة بامتياز[1]. بالرغم من النهاية الأليمة، التي انتهى إليها ابن عمار، إلا أن قضيته لم تعرف الانتشار الذي عرفته قضية المعتمد في علاقته بيوسف. وأرى أن السبب في ذلك، يعود إلى أن قضية الأول كان يغلب عليها الطابع الأدبي، ولذلك لم تخرج عن سياق الأدب وتاريخه. أما قضية الثاني، فقد كانت ذات بعد ثقافي- سياسي في الأصل، غير أن هذا البعد استفاد مما هو أدبيّ، من خلال تفعيل أبعاده الجمالية والإنسانية.

يمكن القول إن ابن عباد كان بؤرة عدة أطراف، ظلّت قضيته تستقطبها في مختلف المراحل. وقد أشرنا إلى أنه ظَلّ يجسِّد النّزعة الوطنية الأندلسية، ممثلة في طبقتها الأرستقراطية، بما كانت تعبر عنه من قيم اجتماعية، حضارية وجمالية.

1- هذه العبارة قرأناها في كتاب «الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، ص.540.
وفي علاقة الأدفونش بابن عمار، هناك حكايات طريفة، كلها تركز على حنكة الأخير بصفته مفاوضاً حاذقاً، استطاع أن يستميل ملك الروم إلى حين، مستبعداً بذلك شرّه على المسلمين.إضافة إلى ذلك، هناك قصص طريفة بينهما، من بينها حكاية مباراة الشطرنج، وكذا الرّهان الذي وُضع بينهما للتّباري.

-13-

سنحاول، مؤقتاً، أن نرقى بعلاقة ابن تاشفين- المعتمد، من خلال منحها بعداً أكثر شمولية. ونرى أن ينهض هذا البعد على علاقة الأندلس بالمغرب، انطلاقاً من تتبُّع بعض جوانب العلاقة بينهما، دون أن يمسَّ ذلك بأصل الموضوع. وبمعنى آخر، سيشمل مجال اشتغالنا مختلف الإشارات التي استطعنا استجماعها، اعتماداً على نفس المادة الأدبية والتاريخية، التي ما فتئنا نقف على أرضيتها منذ البداية.

على الرغم من التنافس، الذي ظَلّ يؤسس للعلاقة بين المغرب والأندلس، منذ التحاق الأخيرة بالحكم المرابطي، إلّا أن هذا التنافس لم يحتكم إلى سوء الفهم والقطيعة بالمطلق. فقد شهدت العلاقة تواصلاً مستمراً، شحنته الزيارات المتبادلة بين الأدباء والعلماء من البَرَّيْن. فمثلما كانت وفود المشرق، مُمثَّلة في شخصيات مثل أبي علي القالي وصاعد البغدادي وزرياب، ذات آثار عظيمة على نهضة الثقافة الأندلسية، فإن ذات الآثار كانت حقائق ملموسة على الثقافة المغربية، من جرّاء وفود ابن حزم، ابن رشد، ابن الخطيب، وغيرهم كثير. ولعلّ ما يعنينا في هذا الإطار، هو وفود ملك إشبيلية الشاعر ابن عباد بالتأكيد. وللإشارة، فإننا نتعاطى مع هذا الأخير بصيغة الجمع، أي باعتباره عنوان حركة دؤوبة، شارك في استمرارها كثير ممن زاروه: ضيفاً أو أسيراً أو دفيناً. والمُلاحظ أن هذه الحركة لم تتوقف إلى اليوم، للاعتبارات التي وقفنا عند بعضها

حتّى الآن.

إن تمدّد الجغرافيا العربية، بفعل سياسة الفتوحات العسكرية والدينية، أدى إلى توزع هذه الجغرافيا إلى مشرق ومغرب. غير أن الحنين إلى الأصل، كان يفعل فعله في المُخيّلة والوجدان، بصفته الوحيد القادر على اختزال المسافات البعيدة. وقد عبَّر عن هذه الحساسية، في وقت مُبكّرٍ، عبد الرحمن الداخل في أبيات منسوبة إليه:

أيُّها الرّاكبُ المُيمِّمُ أرضي اقرأْ من بَعضي السَّلامَ لِبعضي

إنَّ جِسمي كَما تَراهُ بأرضٍ وفُؤادي ومالكيهِ بأرضِ

قَدَّرَ البيْنُ بيننا فافْترقْنا وطَوى البَيْنُ عن جُفوني غمضي

قدْ قضى اللّهُ بالبعادِ عَلينا فَعسى باقترابِنا سوفَ يَقضي[1]

تظهر حالة الاندماج النفسي بالشرق حقيقة ملموسة في الأبيات. إلا أن هذه الحالة ستخفّ، حيناً بعد حين، بفعل تعاقب السِّنين والعصور. ومن ثمّ، كان أن تترك الحالة الأولى مكانها لأخرى، قوامها الحوار، بل التنافس، بل ادِّعاء التفوُّق حتّى. ويمكن القول إن الحالة الثانية، هي نتيجة حتميّة لتَشَكُّل الشخصية الأندلسية، بمقوماتها المادية والرمزية. وهكذا، بدل الأبيات السابقة، صرنا

1- كما تنسب إليه الأبيات التالية:

تَبدَّت لنا وسطَ الرُّصافةِ نخلةٌ تناءتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النَّخلِ

فقلتُ: شَبيهي في التَّغَرُّبِ والنَّوى وطول التَّنائي عن بَني وعنْ أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُك في الإقصاءِ والمُنتأى مِثلي

بصدد أخرى، تتحصَّن فيها الذات بكبريائها بدون مُركَّب نقص. وبطبيعة الحال، من البَدَهِي أن يتحيَّز ذلك الكبرياء، بوقوف المغرب (الغرب الإسلاميّ) شامخاً في وجه المشرق. ونلمس هذا الإحساس لدى غير قليل من المغاربة في الضفَّتيْن معاً. وقد وصل إلى درجة من الوضوح، بالقدر الذي نلمسه في أبيات ابن حزم التالية:

أَنا الشَّمسُ في جَوِّ العُلوم مُنيرةً ولكنَّ عيْبي أنَّ مَطلعيَ الغــربُ

ولوْ أنَّني من جانبِ الشَّرقِ طالـع لجدَّ على ما ضاعَ من ذِكريَ النَّهبُ

ولـي نحوَ آفـاقِ الـعِـراقِ صبابـةٌ ولا غروَ أنْ يَستوحشَ الكَلِفُ الصَّبُّ

فإنْ يُنزلِ الرّحمنُ رحليَ بينهـمْ فحينئذ يبدو التَّأسُّف والكـربُ

فكمْ قائلٍ أغفلتُهُ وهو حاضـرٌ وأطلبُ ما عنهُ تجيءُ بهِ الكتـبُ

هُنالكَ يـدري أنَّ للعبدِ قِصـةً وأن كسادَ العلمِ آفتهُ القُــربُ

فيا عجباً مَنْ غابَ عَنهم تَشوَّقـوا لـهُ، ودُنُـوُّ المـرءِ من دارِهـمْ ذَنـبُ

وإنَّ مكاناً ضـاقَ عنِّي لَضَيِّـقٌ على أنَّـه فِيحٌ مَهامِهُهُ سَهــبُ

وإنَّ رِجـالاً ضيّعـوني لَضُيَّــــعٌ وإنَّ زماناً لمْ أنلْ خصبهُ جَدبُ[1]

وإن ظَلّ التقابل بين المشرق والمغرب قائماً، ولو بشكل عرَضي، فإن حضور الأول استمر بصفته مجالاً تصويرياً فاعلاً. ومن أمثلة ذلك، ما

1- القطعة أخذناها عن نفح الطيب، المجلد الثاني، ص.81.

وفي نفس السياق، يمكن قراءة أبيات ابن دراج القسطلي التالية:

فإن غَربتْ أرضُ المغارب موطني وأنكرني فيها خليطٌ وجيــرانُ

فكمْ رَحُبت أرضُ العراقِ بمَقدمي وأجزلتِ البُشرى علي خراسانُ

وأنّ بِلاداً أخرجتني لعُطـــــل وأنّ زماناً خانَ عهدي لخـوّانُ

نقرؤه في بيت ابن زيدون التالي:

يا قــمراً مطلعــه المــغــرب قـد ضـاق بـي في حبك المـذهـب[1]

أو في بيت ابن اللبانة التالي:

بُروقُ الأمــاني دونَ لُقياك خُلَّبُ ومَشـــرقُ أُفـقٍ لمْ تَلُحْ فيه مَغربُ[2]

أو في بيته:

بمغربِ العُدوةِ القُصوى دَجا أَمَلي فهلْ لهُ بِديارِ الشَّرقِ مِشكاةُ[3]

أو في أبيات أبي العرب الصقلي:

إلامَ اتِّباعي للأماني الكـــواذبِ وهذا طريقُ المَجدِ بادي المذاهـبِ؟

أَهُمُّ ولي عزمانِ: عزمٌ مُـشـــرِّقٌ وآخــرُ يَثـنـي هِـمّتي لـلمـغــاربِ

ولا بُدَّ لي أن أسألَ العِيس حاجـةً تَشُقُّ على أخـفـاقِها والغَـــواربِ

إذا كانَ أصلي من تُرابٍ فكلُّــهـــا بِـــلادي وكلُّ العـالمينَ أقاربـــي[4]

تحت تأثير الحكم «الامبراطوري» للمرابطين، سيتحوّل التقابل الرئيسي بين المشرق والمغرب إلى تقابل بين البَرَّيْن، أي الشمالي والجنوبي. وإذا كان التقابل الأول ظَـلّ رهين علاقة الحوار والتنافس، فإن الثاني سيأخذ بعداً آخر من التطرُّف، وصل حَدَّ

1- خريدة القصر، ص.50.

2- نفسه، ص.108.

3- بهجت (منجد مصطفى)، ديوان ابن اللبانة الأندلسي، مجموع شعره وموشحاته ونثره، مع دراسة لحياته وأدبه، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، الطبعة الأولى، 2011 ص.116.

4- نفح الطيب، المجلد الثالث، ص، ص.569 - 570.

التجريح لدى البعض، مثل إسماعيل بن محمد الشقندي في مفاخرته على أهل المغرب[1].

-14-

من حقائق التاريخ أن المغرب ظَلّ محطة عبور لأغلب الوافدين العرب إلى الأندلس. وبناء على هذا الاعتبار، يكون إدريس الأول، بعكسه مجرى التيار، هو مؤسس الدولة المغربية (في العهد الإسلامي). ليس للأمر علاقة بتأسيس السلطة، وإنما بتأسيس فكرة الإقامة في الأرض المغربية.

هذا، كما أن استمرار مركز السلطة في المغرب، على عهديْ المرابطين والموحدين، حتى بعد استدماج الأندلس في سلطة الحكم المغربي، أعطى لتلك الدولة قوتها الرمزية والثقافية بالأساس. وسترسخ هذه القوة، بفعل انتعاش فكرة الإقامة في المغرب، بعد زوال الحكم العربي بالأندلس. وكان من دواعي نجاح تلك الفكرة، نزوح معظم العائلات الأندلسية إلى المغرب، على تعدّد أطيافها وثقافاتها وهوياتها. فقبل ذلك التاريخ، كان التقابل يأخذ، أحياناً،

1- والشقندي ليس وحده في مفاخرته على المغربي أبي يحيى ابن المعلم الطنجي، بل هناك رسالة أخرى، في نفس الموضوع، لأبي محمد بن حزم يرد فيها على الحسن بن محمد بن الربيب القيرواني، الذي عاب على أهل الأندلس تقصيرهم في بيان فضل علمائهم. والرسالتان، معاً، موجودتان في كتاب الشكعة (مصطفى)» الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت، 1983، ص، ص.614 - 620.

بعداً إثنياً بين العرب والبربر. ولا ينبغي أن نغفل أن العنصر البربري، لم يكن يشكل طرف المعادلة التقابلية بين الأندلس والمغرب فقط. ذلك أن الأندلسيين، أنفسَهم، عاشوا موزعين بين العرب والبربر، إضافة إلى السكان الأصليين من غالبية مسيحية وأقلية يهودية. كما أنه لا ينبغي، في سياق ذلك، أن نغفل أن الصراع الذي شهدته الضفتان، هو نفس ما شهده الأندلسيون، في ما عُرِفَ بفتن البربر في تاريخ الجزيرة.

إذا رجعنا إلى المصادر المعتمدة، هنا، سنجد أن حكم بني عباد لم يترسخْ إلا بالقضاء على بني حمّود. وما الخطة التي قامت على اختلاق قصة المدعي المشبه بـ «هشام بن الحكم»، إلا تدبير محكم للقضاء على خلافة بني حمود الموسومين بالبربر[1]. وقد سبقت الإشارة إلى قصة حديقة الرؤوس التي أنشأها المعتضد نكاية بأعدائه البربر، وعلى رأسهم علي بن حمود الحسني[2].

1- جاء في«البيان المغرب» أن ابن القطان قال: «وكان ذكر أن هشاماً فَرّ من الفتنة ورفض الملك وكتم أمره وأخفى نفسه في مدة طويلة واستقر في قرية من قرى إشبيلية يؤذن في مسجدها ويعمره ويتقوت من العمل في الحلفاء»، ص. 199. وفي موضع آخر، نقرأ أن المعتضد لما «أتيح له من الظفر بالخضراء وأعمالها ما أتيح اتصلت الأنباء بالأندلس بصموت منابره في جميع أعماله عن ذكر إمامه هشام بن الحكم صاحب الرجعة الذي اتصل الدعاء له على منابره من عهد قيام والده..»، الجزء الثالث، ص.199.

2- لنتأمل ماجاء على لسان ابن بسام، نقلاً عن البيان المغرب، من حكاية عن بأس المعتضد في الفتك بالبربر: «ثم غمس المعتضد يده بعد فيمن كان يليه من أمراء البربر فصدم شرهم بشرهم، وضرب زيدهم بعمرهم، وكان عندما تَسعَّرت نار الحرب، بينه وبين رؤساء الغرب، هادنهم على دخن، ومنح لهم حتى ضربوا حوله بعطن، ليقتلهم بسيوفهم، ويستدرجهم إلى حتوفهم»، نفسه، ص.214.

أما في الجهة المُقابِلة، أي في المغرب، فقد كان خطر بروز البربر مُترقباً في أية لحظة. وسبق أن مرّ بنا كيف كان المعتضد يستطلع أخبار العدوة، في كل وقت، عن نزول البربر رَحْبة مراكش، على حد تعبير عبد الواحد المراكشي[1]. ومما كان يتوقعه، أن هؤلاء البربر خالعوه أو خالعوا أحد أبنائه «فكانت دعوة وافقت المقدار»[2].

هكذا، استمر قدر البربر محتوماً في القضاء على بني عباد، بل على الأندلس في روحها الوطنية. وقد قُرن البربر بقسط كبير من العنف والفتن، سواء من البربر الأندلسيين أم البربر المرابطين. وإن استطاع العباديون النجاح في القضاء على أكبر مناوئيهم، من بربر صنهاجة وبني برزال المجاورين في «قرمونة»، فإن الدور كان عليهم، من بعدُ، على أيدي البربر اللمثونيين. ولعلّ ما يرسخ رمزية الانتصار المرابطي/ البربري، أن تسلمت سبيعة حفيدة يحيى بن علي بن حمود رأس هذا الأخير من بعلها الأمير اللمتوني سير أبي بكر(ابن عم يوسف أو ابن أخيه؟) «فدفنته في المسجد الذي قُتِل فيه عبد العزيز بن موسى بن نصير وكان في أذن الرأس براءة فيها اسم يحيى بن علي»[3].

1- كانت للمعتضد وقائع كثيرة أوقعها بالبربر، وتعبر عن إحداها قصيدة ابن عمار الرائعة، التي مطلعها:

أدرِ الزجاجةَ فالنّسيمُ قدِ انبرى والنَّجمُ قد صرفَ العِنانَ عن السُّرى

وتستمر الأبيات إلى أن يصل إلى قوله:

شَقِيَتْ بسيفكَ أمّةٌ لمْ تَعتقِدْ إلاّ اليهودَ وإن تَسَمَّوْا بَربرا

2- المعجب، ص.148.

3- البيان المغرب، الجزء الثالث، ص.199.

-15-

يتولّد عن الاهتمام بالمغرب، في إطـار إغفال مقولة المشرق، تقابل حـادّ بين الأندلس والمغرب. وإذا كان تفكير الأندلسيين في المغرب، ينحصر في ما يمثله من خطر، فإن تفكير المغاربة في الأندلس، بات يتسع لكل ما هو ثقافي- حضاري. إن التقابل، هنا، بين من يرى في أحدهما موضوعاً عسكرياً، وبين من يرى في الآخر موضوعاً ثقافياً. وإن لم نعدم أمثلة تاريخية على خطر المغرب العسكري، فإن الأصل في نظرة المغاربة للأندلسيين كان يحكمها ما هو ثقافي في الغالب.

ومثلما قلنا، فإن المغاربة/البربر اقترنوا، خصوصاً لدى الفئة المُتسيِّدة من الأندلسيين، بالفتنة، والتدخل العسكري العنيف في معظم الأحوال. وبالرغم مما عبَّر عنه حاكم إشبيلية، في سياق المقارنة بين الخطر الجنوبي/المرابطي والخطر الشمالي/المسيحي، فإن القبول بالأول لم يكن ليذهب إلى حد الاعتراف بسلطته على الإطلاق[1]. بل وجدنا، أكثر من ذلك، بعض المصادر التاريخية تذكر تآمر ملوك الطوائف على ابن تاشفين، سواء من خلال التنسيق مع الأدفونش، بأداء الجزية إليه، أو من خلال دفع المرابطين إلى تحمل كُلْفة الحرب

1- أُثِر عن المعتمد قوله: «إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر الملثمين، ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الإفرنج»، وفيات الأعيان، المجلد الخامس، ص.473.

ضد الروم وحدهم[1].

استمراراً للنظرة السَّلبية للمغرب، باعتباره خطراً قائماً أو مُحتملاً، وجدنا هذا المغرب يتحيَّز بصفته فضاء للموت، للغربة، والتغريب/ النفي. ويمكن أن نقف عند بعض الأمثلة، مما وقفنا عليه في مصادرنا المعتمَدة، ومنها رؤيا ابن عمّار المتقدِّم ذكرها. فقد كان هاجس القتل، الذي رأى أن من الممكن أن يتعرض له، على يد المعتمد، دفعه إلى التفكير في نفي نفسه خارج الأندلس، أي في المغرب بالتحديد. ولعلّ ما يَبينُ عن تفكيره ذلك، عبارته التالية «وقصدت دهليز القصر مستخفياً به، وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركب وأقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أمـوت»[2]. يبدو أن في قرار ابن عمار غير المتحقق، تفكيراً في القيام برحلة تُعاكس المجرى، أي باعتبارها رحلة من الشمال إلى الجنوب. وإن تَقَّدم المغرب، في رؤيا صاحبنا، بديلاً للخلاص، ومن ثم النجاة، فإن ذلك لم يحصل إلا في سياق ما غدا يُشكّله جانب صديقه المَلِك من خطر مُحدق. يتعلّق الأمر، هنا، برحلة مُكْرَه فيها ابن عمار، قراره إليها جرى توقيعه حفاظاً على دمه. ومما ينبغي الالتفات إليه، عبارة «البحر»، في إطار اقترانها بفعل «الركوب». فركوب البحر، وإن

1- جاء في الوفيات، أيضاً، أن خواص ابن تاشفين أوهموه «أن ملوك الأندلس يفرون عنه ويخلون بينه وبين الأدفونش فأصغى إلى كلامهم وعمل في نفسه قولُهم»، المجلد الخامس، ص.484.

2- المعجب، ص.175.

جاءت في سياق مجازي، تحمل من معنى الخطر أكثر مما تحمله عبارة «ركوب السفين» في سياق آخر.[1] إضافة إلى ذلك، ينبغي تقدير عبارته «بلاد البربر»، سواء في سياق ما أشرنا إليه سابقا، أم في إطار الدلالة على بلاد الأغيار، أي غير الأهل من العرب. ولعلّ في المعنى الأخير، يندرج المغرب بصفته بلدَ غربة ومنفى.

- 16 -

الحقيقة أن لا شيء يُغري بالإقامة في العُدْوة، حسب هذا الرأي، مادامت هذه الأخيرة «بلاد بربر وأجلاف العربان» على حد تعبير ابن خلكان في وفياته[2]. أما في ما يتعلّق باقتران المغرب بالموت، فإننا لا نعدم إشارات صريحة، منها ما ورد على لسان عبد الواحد المراكشي، مُعلِّقاً على نزول أبي القاسم بالمغرب «وحلّ بالعدوة محلّ الدفين»[3]. وهذا ما عَبّرَ عنه ابن اللبانة شعراً، راثياً المعتمد، من خلال الإشارة إلى أغمات على النحو التالي:

وقُلْ لعالمِها الأرضيِّ قد كَتَمَتْ سَـريـرةَ الـعـالـمِ الـعـلـوي أغـمـاتُ

والحقيقة أن ابن عباد، منذ نزوله بالمغرب، أحسّ أن آخر فصل من

1- في هذا الإطار، لا ينبغي إغفال اقتران المغرب ببحر الظلمات، دلالة على الخطر والمجهول.

2- وفيات الأعيان، المجلد الرابع، ص. 282.

3- المعجب، ص.211.

حياته يُكتب في المغرب. ولعلّ هذا ما عبَّرت عنه أبياته التالية:

هــــذي جِــبــــالُ دَرَنِ   قَــلـبـي بـِهــا ذو دَرَنِ

يـا لَيـتـنِي لـمْ أَرَهـا   ولَـيـتـهـا لـمْ تَرَنـي

كـأنّـهـا تُـخـبـِرُنـي   بِأنّـهَـا تُـقـبـِرُنـي[1]

ولو أن الأمر تعلَّق بحالة فردية معينة، في إطار تجربة معينة قاد صاحبها إليها قدَرُه، لما استحق الموضوع كبير عناية. ولكن، أن يرادف المغرب الموت، بما يجعل من أرضه قبراً لكل عظيم وذي مجد، فذلك مما يُكسب هذا المغرب قوته الرمزية، في دلالته على الموت.. وأي موت؟ إنه موت العظماء نفياً وسجناً[2]. وهذا ما ذهب إليه أبو عيسى بن لبون في أبياته هاته:

كَمْ بالمغاربِ من أشلاءِ مُحترمٍ   وعاثرِ الجدِّ مَصبورٍ على الهونِ

أبناءُ مَعنٍ وعبّاد ومَسلمةٍ   والحُميريِيْنِ باديسَ وذي النُّونِ

راحوا، لهمْ في هِضابِ العِزِّ أبنيةٌ   وأصبحوا بينَ مَقبورٍ ومَسجونِ[3]

1- الديوان، ص.151.

2- هناك قصة طريفة، في سياق المعنى الذي نتحدّث عنه، وقعت لأبي محمد عبد الله بن إبراهيم، مما جاء فيها على لسانه: «وكنت ممن زاره بسجنه بأغمات، وحملتني الحمية له والامتعاض لما حلّ به أن كتبت على حائط سجنه متمثلاً:

فإنْ تَسجنوا القَسريَّ لا تسجنوا اسمَهُ   ولا تَسجنوا مَعروفَهُ في القبائلِ

ثم تفقدت الكتابة بعد أيام، فوجدت تحت البيت: لذلك سجناه:

ومن يجعلِ الضِّرغامَ في الصّيد بازَهُ   تَصيَّدَه الضّرغامُ فيما تَصيَّدا

فما أدري من جاوب بذلك، ثم عدت له ووجدته قد محي، وأعلمت بذلك ابن عباد، فقال: صدق المجاوب، وأنا الجاني على نفسه، والحافر لرمسه..»، نفح الطيب، المجلد الثالث، ص،ص.571 - 572.

3- قلائد العقيان، الجزآن1و2، ص.410.

من الملاحظ أن الإحالة إلى المغرب، تتِمُّ من خلال أسماء مُتعدّدة، من قبيل طنجة، أغمات، جبال درن، وغيرها. إلّا أن مختلف تلك الأسماء، لا تفترق في الدلالة على فضاء المنفى والموت. ويبدو أن أهم عامل في هذا التَّكريس، ما حفلت به قصة المعتمد من أحداث وقصائد.

وبالعودة إلى «المغربيات» من قصائد السجن، نجد أنها تتضمن إشارات إلى العُدْوة الجنوبية، من خلال ذكر بعض مدنها. والإشارات لم تخرج، في مجموعها، عن سياقات الدلالة على السَّلب. فإضافة إلى جبال درن المتقدمة، تحتلّ أغمات بؤرة شعر مرحلة الأسر، حسب تقسيم محقق الديوان. وقد جاء ذكرها في الأبيات التالية على النحو الآتي:

إذا قيلَ في أغماتَ ماتَ جودُهُ — فما يُرتجى للجودِ بعدُ نُشُوُر(1)

أضاءَ لنا أغماتَ قُربُكَ بُرهةً — وعادَ بها حينَ ارتحلتَ ظلامُ(2)

تَخَلصتُم من سجنِ أغماتَ والْتَوَتْ — علي قيودٍ لم يَحِنْ فَكُّها بعدُ

غَنّتكَ أغْماتيُةُ الألحان — ثَقُلتْ على الأرواحِ والأبدانِ(3)

فيما مضى كُنتَ بالأعيادِ مَسروراً — فساءكَ العيدُ في أغماتَ مَأسورا(4)

غِربانُ أغْماتَ لا تَعدَمَنَّ طيبةً — مِنَ اللّيالي وأفناناً منَ الشَّجَرِ(5)

1- الديوان، ص.171.

2- نفسه، ص.177.

3- نفسه، ص.183.

4- نفسه، ص.168.

5- نفسه، ص. 190.

أما بالنسبة لـ طنجة، التي حَلّ بها المعتمد أولاً، قبل أن يتم تسييره إلى أغمات، فقد ورد ذكرها في سياق لقائه بالشاعر الحصري[1]، وهو لقاء تسامع به الشعراء، فتعرضوا له سائلين عطاياه.

شُعراءُ طنجةَ كُلهم والمَغربِ ذهبوا من الإغْرابِ كُلَّ مَذهبِ
سألوا العسيرَ منَ الأسيرِ، وإنَّهُ بسؤالِهِمْ لأَحَقُّ منهمْ فاعْجبِ[2]

هذا، كما ورد ذكر لـ فاس، في سياق شعري مُفعَم بالألم، بعد أن تَمَّ الإفراج عن أسرى من المدينة، في حين ظَلّ المعتمد في سجنه أسيراً. والسياق الشعري، ينِمُّ عنه البيت التالي:

هَبوا دعوةً يا آلَ فاسَ لِمُبتَلٍ بما منهُ قدْ عافاكُمُ الصَّمدُ الفَرْدُ![3]

غير هذا، ورد ذكر المغرب، بوصفه فضاء عامّاً، بصيغة المفرد، مقترناً بـ طنجة في السابق، أو بصيغة المثنى، كما في:

غَريبٌ بأرضِ المَغربينِ أسيرُ سَيبكي عليهِ مِنبرٌ وسَريرُ[4]

أو بصيغة الجمع، كما هو الحال في مراجعته لـ ابن اللبانة في خمسة أبيات، منها هذا البيت:

يا أبا بَكْرٍ الغَريب وَفاءً لا عَدمناكَ في المَغاربِ ذُخرا![5]

زيادة على ذلك، تعضدت كلمة المغرب بالإحالة إلى دلالة الغربة

1- هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري الفهري الضرير.

2- الديوان، ص.154.

3- نفسه، ص.185.

4- نفسه، ص.171.

5- نفسه، ص.175.

(الغريب، الغربان، الإغـراب)، في سياق اشتقاقي دال بكثافته الإيحائية/ الفجائعية. ومثلما شملت الغربة الحياة بإسارها، شملت بذات الإسار الموت. ويتجلّى المعنى الأخير في قوله:

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرّائحُ الغادي حقّاً ظفرتَ بأشلاءِ ابنِ عبّادِ![1]

- 17 -

هذه هي السياقات التي ورد فيها ذكر «المغرب»، وهي سياقات تُقدِّم البلاد باعتبارها مكاناً للإقامة القسرية. ولذلك، بات من الطبيعي أن يصير ذلك المكان رديفاً للنفي والموت.

والواقع أن المعتمد لم يعمل، وحده، على تكريس هذا المعنى، بل ساهم في ذلك كل من زاره من شعراء بلاطه وأصدقائه. ويأتي على رأس هؤلاء، شاعره الوفيّ ابن اللبانة الدّاني. فقد خلَّف هذا الشاعر قصائد قوية، جسدت ملحمة النفي/ الموت لدى بني عباد، أكثر مما خلّفها ابن عباد عن نفسه. وأرى أن تلك الملحمة تقوّت دلالتها، جرّاء سوقها في إطار من الحكمة الإنسانية.. تلك الحكمة التي ما فتئت تُذكِّر الإنسان بضعفه، ومن ثم بزواله. من هنا، انطلقت سهام قصائده لتقتحم القلوب الحَيَّة: موضوعها ملك إشبيلية الشاعر وما تعرَّض له، بفعل سطوة الزمان الفاجع، وتقلُّبه الغادر من حال لحال. ومن تلك القصائد، وهي غير قليلة بالطبع، تأتي «تائية» الداني أثناء

1- نفسه، ص.193.

زيارة المعتمد في سجنه[1]:

لكلِّ شيءٍ منَ الأشياءِ ميقاتُ وللمُنى من مناياهنَّ غاياتُ
والدَّهرُ في صبغةِ الحرباءِ مُنغمسٌ ألوانُ حالاتهِ فيها استحالاتُ
ونحنُ من لُعبِ الشَّطْرنجِ في يدهِ وربَّما فخرتْ بالبَيدقِ الشّاةُ
أُنفضْ يديكَ منَ الدُّنيا وساكنِها فالأرضُ قدْ أقفرتْ والنّاسُ قدْ ماتُوا[2]

وفي قصيدة أخرى، بنفْس النفَس الحِكَمِيّ/ الفجائعي، نقرأ هذه الأبيات (بتصرُّف):

تبكي السّماءُ بمُزنٍ رائحٍ غادي على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ
على الجبالِ الّتي هُدَّتْ قَواعدُها وكانتِ الأرضُ منهمْ ذاتَ أوتادِ
لمّا دَنا الوقتُ لم تخلف له عدةٌ وكلُّ شيءٍ لميقاتٍ وميعادِ
أن يُخلعوا، فبنو العبّاسِ قد خُلِعوا وقدْ خلتْ قبلَ حِمصٍ أرضُ بغدادِ
حموا حريمهمُ حتّى إذا غُلبوا سيقوا على نسقٍ في حبلِ مُقتادِ[3]

ذلك النَّفَس، المُختَرَق بالزُّهد والعِبرة من تقلُّب الزمان، لم

---

1 - اعتُبر ابن اللبانة شاعراً مُجيداً، ومما جاء لدى صاحب «الخريدة» في الموضوع «كنت أعتقد أن في طبع المغاربة يباسة، يأبى لشعرهم سلاسة، حتى أنشدت شعر ابن اللبانة فحصلت من رقته ورونقه باللبانة، وهو أصفى من اللبن وأحلى من الضرب، وأنفى للكرب، وأجلى للطرب»، ص.123.
والملاحظة، وإن جاءت في سياق إيجابي، إلا أنها لا تخلو من إشارة إلى ذلك التقابل السائد بين مقولتي المشرق والمغرب.

2- المعتمد بن عباد وشعراء عصره، ص، ص.66 - 67.

3- نفسه، ص، ص. 66-65.

نعدمه لدى المعتمد في قصائده أيضا. والملاحظ أن النفَس المعنِيّ، لم يجئ نتيجة فطنة أو ذكاء من الشاعر، بل جاء نتيجة تجربة قوية زلزلت كيانه، وقلبت نظرته إلى الحياة. ومما نجد لديه في هذا الإطار، ما يلي من أبيات مبثوثة في أكثر من قصيدة.

أرى الدُّنيا الدنيَّةَ لا تُواتـي، فأَجمِلْ في التَّصرُّفِ والطِّلابِ

ولا يَغررْكَ مِنها حسنُ بُردٍ لهُ علمانِ من ذَهَبِ الذّهابِ

فأوّلُها رجاءٌ من سرابٍ، وآخرُها رِداءٌ من تُرابِ[1]

ويقول، أيضاً، في الأبيات التالية:

عَلِّلْ فُؤادكْ، قد أَبَلَّ عليلُ واغنمْ حُياتكَ، فالبقاء قليلُ

لوْ أنَّ عُمركَ ألفُ عامٍ كاملٍ ما كانَ حقّاً أن يُقال: طويلُ

أَكَذا يَقودُ بك الأسى نحوَ الرّدى والعَوْدُ عودٌ، والشَّملُ شمولُ؟

لا يَستبيكَ الهَمُّ نفسكَ عُنوةً والكأسُ سيفٌ في يديْكَ صقيلُ

بالعقلِ تَزدحمُ الهمومُ على الحشا فالعقلُ عندي أن تَزول عُقولُ[2]

---

1 - الديوان، ص.152.

2 - نفسه، ص.66.
اخترناها لتمثيل شعر الحكمة عند المعتمد، نظراً لقوتها، مع أن محقق الديوان لا يدرجها ضمن قصائد الأسر.

-18-

لقد انتهى حكم ابن عباد، مثلما انتهى حكم ابن تاشفين. غير أن قدَر المغرب «الأبـديّ»، أن تظلّ مثل الأبيات السابقة تطاوله عبر العصور. فالحرارة الإنسانية في عباراتها، إضافة إلى الألم الكامن في ثنايا صورها، يجعلان الذاكرة مُتوثِّبة، لها القدرة على وصْل الحاضر بالماضي، خصوصاً بوجود بعض السياقات الشبيهة. فالخطر يأتي من الجنوب، وإن تغيَّرت أشكاله وأبعاده. ولعلّ توقُّع ذاك الخطر في أية لحظة، يعمل في اللاشعور على استدامة سوء الفهم بين البرَّيْن، الشمالي والجنوبي.

في هذا الإطار، يبدو قبر المعتمد بـ أغمات شاهداً مادياً، بتأشيره إلى مرحلة صعبة من التاريخ، قد تطلّ برأسها بين الفينة والأخرى. ويمكن القول إن المعتمد اختزل برمزيته، وهـو في أَوْج أزمته الشخصية، تواصلاً ثقافياً راقياً، من خلال ربطه بين الشعراء والعلماء من الجانبيْن[1]. وأعتقد أن قبره هناك، ما فتئ يضطلع بنفس الدور

1- وجدنا إشارات مهمة لذلك التواصل الثقافي، ومنها تلك الزيارات إلى أغمات من غير قليل من الشعراء حتى بعد وفاة المعتمد. ومن الإشارات، ما جاء في الذخيرة على النحو التالي: «وتنازعت يومئذ له من أهل الأدب بأغمات، ورثوه بقصائد مطولات، منهم أبو بحر بن عبد الصمد، رثاه بقصيد أوله:

مَلكَ المُلوكِ أَسامعٌ فأنادي (ثلاثة أبيات)

وأنشد على قبره وفعل ما ذكر: قبَّل الترب ومرَّغ جبينه وعفر، فأبكى من حضر»، القسم الثاني، المجلد الأول، ص،ص.57 - 58.

وإضافة إلى ذلك، سبق أن أثبتنا ما قاله أبو محمد بن عبد الله بن إبراهيم في قوله: «وكنت ممن زاره بسجنه بأغمات».

اليوم، أي استدامة ذلك التواصل من قِبَل غير قليل من المثقفين. وبحوزتنا أدبيات غير قليلة بهذا الشأن، وضعناها تحت عنوان: قصائد السجن/المغربيات.

نريد أن نتجاوز زيارات أصدقائه من الشعراء وغيرِهم، لنقف عند زيارة شخص مثل ابن الخطيب. فقد كانت لزيارة الأخير من بعدُ، أكثر من رمزية بالنسبة لما نتحدّث عنه في هذا السياق. ذِكْر الزيارة، جاء في «نفح الطيب» على لسان ابن الخطيب التالي: «وقفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية، باعثُها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة 761، وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض، وقد حفت به سدرة، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك، وعليهما هيئة التغرّب ومعاناة الخمول من بعد المُلك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها».

الملاحظ أن الحديث عن الغربة ظَلّ مستمراً حتى عهد ابن الخطيب. والغربة، هنا، غربة قبر، غربة شخص قضى. فهل الأمر يتعلّق بغربة الزائر نفسه، خصوصاً أنه قُدِّر له أن يعيش نفس معاناة المعتمد في بعض أوجهها؟ هل هي غربة الأندلس بأكملها، في إطار نوع من رثاء المجد البائد، بعد انحسار الحكم العربي هناك؟ لماذا الحديث عن معاناة الخمول بالنسبة للقبر، في ظِلّ ذهاب المُلْك وذهاب صاحبه؟ أليس الموت، نفسه، رديفاً للإهمال والنِّسيان؟ أو ليس موت الشخص باعثاً لانبثاق حياة أخرى، مُجملها قصائد تُحلِّق بأجنحة من خيال؟

وحتّى لو هيأنا لدفين أغمات ضريحاً يليق بمقامه، فليس يضمن له ما يشِعُّ به من حضور، كما تشع به قصائده، مُلامِسة هشاشة الإنسان إزاء الموت. إنها قصائد المعتمد، رمزيته التاريخية بصفته ملِكا، اغتناؤه بغير قليل من القيم، هي ما يدفع ابن الخطيب لأن يبكي، لأن يكتب شعراً، به يستمر حضور ابن عباد.

قدْ زُرتُ قبرَكَ عنْ طوعٍ بأغماتِ ... رأيتُ ذلكَ من أولى المُهمّاتِ
لِمْ لا أزوركَ يا أنْدى الْمُلوكِ يداً ... ويا سِراجَ اللُّيالي المدلهمَّاتِ
وأنتَ مَنْ لو تخطّى الدَّهرُ مَصرعَهُ ... إلى حَياتي لجادتْ فيهِ أبياتي
أنافَ قبرُك في هَضب يُميِّزُهُ ... فَتنتحيه حَفيّات التّحياتِ
كَرُمْتَ حَيّاً وميتاً واشتهرتَ علا ... فأنتَ سُلطانُ أحياءٍ وأمواتِ
ما رِيء مثلك في ماض، ومعتقدي ... أن لا يرى الدهر في حالٍ وفي آت[1]

إن زيارات للقبر مكتوب لها ألا تنقطع، ما دامت شخصية دفينه ماتزال تشكل رمزية التقاء بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب، بين القوة والضعف، بين الحاكم والشاعر، بين الخيال والحقيقة، بين الانغلاق والتسامح. ومن هذا المنظور، ليس بين أيدينا غير عَدّ زيارة «إنفانته» (Infante) لابن عبّاد، استمراراً لزيارة ابن الخطيب في روحها.. وإلا لماذا احتفل البرتغاليون، في يوم الأندلس، بالشاعر العربي سنة 1928؟ لماذا احتفى به «آنخل جنثالث بالنثيا» (Angel Gonzalez Palancia) في كتابه «تاريخ

1- نفح الطيب، المجلد الرابع، ص.98.

الفكر الأندلسي»؟[1] لماذا تناول سيرته الشاعر الشيلي «سيرجيو ماسياس» (Sergio Macias)؟ لماذا.. لماذا؟؟؟

وإن قضى المعتمد غريباً عن موطنه الأندلس،

عن مسقط رأسه شلب (Silves)،

عن أصل أجداده بالعريش،

فإن في قدره ذاك، أن يحيا التعدّد الثقافي/ الإثني في شخصه. وأعتقد أن في إطار ذلك التعدّد، يحيا الحوار، ويسود التسامح. ومما لا شك أن بالغربة، سواء الجسدية أم الروحية، ينتعش الإبداع والفكر، في طريقهما إلى ملامسة الأسئلة الوجودية الأكثر شراسة. إن الاعتراف بالغربة، في الحياة والممات، هي ما دعا الشاعر إلى أن يوصي بكتابة تلك الأبيات على قبره.

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرّائحُ الغادي	**حَقّاً ظفرتَ بأشلاءِ ابنِ عبّادِ**
بالحِلمِ، بالعلمِ، بالنُّعمى إذا اتَّصلتْ،	**بالخِصب، إن جَدبوا، بالرَّيِّ للصّادي**
بالطّاعنِ الضّاربِ الرّامي إذا اقْتتلُوا،	**بالموتِ أحمرَ، بالضّرغامةِ العادي**
بالدَّهْرِ في نِقَمٍ، بالبحرِ في نعِمٍ،	**بالبدرِ في ظُلَمٍ، بالصدرِ في النّادي**
نَعَمْ، هو الحَقُّ وافاني بِهِ قَدَرٌ	**مِنَ السَّماءِ فوافاني لميعادِ**
ولمْ أكنْ قبل ذاكَ النَّعشِ أَعلمُهُ	**أنَّ الجبالَ تهادى فوقَ أعْوادِ[2]**

1- سيتم التعرض للكتاب في الجزء الثاني المخصص للمغربيات من القصائد الأندلسية.

2- الديوان، ص.193.

-19-

إن الحديث عن الغربة، بوصفها فضاء حتمياً لكل إبداع حقيقي، لا ينبغي أن يلتفَّ على حقيقة أن في الضفّة الجنوبية تستمرّ الأندلس حيّة. والحياة، هنا، لا تكتسب معناها من الماضي المشترك، بل من الحاضر المغربي- العربيّ الذي تتعدّد فيه صور الأندلس على جميع المستويات. وبالفعل، فإذا تجاوزنا الأندلس، باعتبارها مجالاً جغرافياً، فإننا نجد الأندلس في أبعادها الثقافية- الحضارية، تنبثق من كل صغيرة وكبيرة، في تمثلات العرب الثقافية والوجدانية.

هل يمكن الادّعاء، الآن، بأن الإقامة الحضارية في الأندلس ساهمت في تلافي مُترِتّبات سوء الفهم في الماضي؟ بالنسبة إلينا، نستطيع الجواب بنعم، مادامت مقومات الشخصية الأندلسية قائمة، خصوصاً من ناحية القيم الحضارية الرفيعة. ولعلّ أبرز دليل على ذلك، أن معادلات، من قبيل العرب- البربر، لم يُكتب لها النجاح في أن تؤدي إلى ذلك الصراع الدموي، الذي لم يسلم منه الماضي في أزهى عصوره.

في هذا السياق، يمكن أن يتحوّل فضاء الغربة، بالنسبة للمعتمد، إلى فضاء إقامة دائمة، يعيش فيه «أندلسيته» بِحُرية.. والأكثر من ذلك، أن يعيش بين أهله من المغاربة/الأندلسيين، في مناخ ثقافي أندلسي حقيقي، في أدبه وموسيقاه ومعماره، في طبخه ولباسه ورسم حروفه، وغير ذلك.

أما الأندلس، باعتبارها الجغرافي، فمن المطلوب أن نقرأها في سياق ما هو ثقافي مشترك. وهنا، ينبغي التفكير في البحر، بصفته مجالاً للحركة المتبادلة بين الضفتين.. بين الشمال والجنوب بصفة عامة.
أكثر من مجرد التفكير، ينبغي أن تنتهي الأندلس بصفتها موضوعاً لجواز الفاتحين، مثلما ينبغي أن ينتهي المغرب بصفته موضوعاً «كولونيالياً».

بهذه الطريقة، نكون بحاجة لقراءة جديدة لـ المعتمد، شخصاً وشعراً.. في ضوء الإرث الأندلسي المشترك.

فهل نعتبِر بالشعر..

نعتبِر بالتاريخ؟؟؟

عِندَ قَبرِ المُعتمِد

البُكاءُ على أطْلالِ دولةِ بَني عبّاد



ضريح المعتمد بن عباد

- 1 -

شكَّلت بلدة «أغمات» المغربية قِبلة للكثير من زوار المعتمد في سجنه. وبين أولئك الزوار، كان من الوافدين شخصيات أندلسية رفيعة، خصوصاً ممن كانوا يتعاطَوْن العلم والمعرفة والأدب. وسواء بدافع الوطنية الأندلسية حيناً، أو بدافع قضاء واجب الصداقة والوفاء حيناً ثانياً، أو بدافع الاعتبار بحال الأسير الطارئ حيناً ثالثاً، فقد ألفينا المعتمد، في مُعتقله، يحوز مختلف معاني التعاطف من قِبل كل من انشغل بقضيته، التي كان لها أكثر من بُعْد.

وفي الوقت الحاضر، وحتّى يومنا هذا، ما يزال ضريح الملك/ الشاعر يستقطب الزوار من مختلف الجنسيات، في إطار نوع من السياحة الثقافية. فالألم المُتفجِّر من محنة الأسر، التي سبقها حادث الخلع المدوي، كان له تأثيره القوي في انبثاق نصوص شعرية، خلاصة تجربة حياة غنية ومُتعدّدة في مساراتها. ولذلك، لم تكن قصائد السجن لِتَفتقِد، وهي تبكي دماً حاراً دافقاً، تلك النزعة التأمُّلية المسكونة بالزُّهد والحِكمة.

في هذا السياق، ينهض المعتمد بؤرة تواصل بين الشمال

والجنـوب، بالرغـم ممـا بـات يُجسِّـده مـن «جـروح» تاريخيـة، مـا تـزال تلقـي بظلالهـا علـى الحاضـر المُنهَـك بسـوء الفهـم. مـن شـأن الحاضـر أن يتـولاّه الإحسـاس بالثقـة فـي المسـتقبل، فـي ظِلّ الشـراكة والتعـاون اللذيـن يسـتعرضهما أكثـر مـن عنـوان، بفعـل الاحتـكام إلـى الجغرافيـا والتاريـخ والاقتصـاد، وحتـى الأمـن فـي ضفتـي المتوسـط. أمـا شـأن الماضـي، وخصوصـاً فـي بُعـده الأدبـي، فلدينـا بعـض ممـا يمكـن قولـه وإنجـازه، بخصـوص المعتمـد وزواره مـن رجـالات الأدب والعلـم فـي الأندلـس.

إن الماضـي الأندلسـي- المغربـي، الـذي كان بطلـه المعتمـد فـي أغمـات، هـو مـا يعنينـا بالـذات الآن. والعنايـة تنصـرف إلـى المعتمـد هنـا، باعتبـاره موضوعـاً للتواصـل الأدبـي علـى أرض الجنـوب. ويمكـن تجسـيد ذلـك التواصـل فـي الحـوار الشـعري الـذي جـرى، بيـن المعتمـد وضيوفـه مـن الشـعراء علـى امتـداد التاريـخ. هكـذا، يسـتمر المغـرب موضوعـاً شـعرياً أندلسـياً بامتيـاز، أي بمجـرد أن وطـئ المعتمـد أرض العـدوة أسـيراً.. إنهـا لمفارقـة عظيمـة، بحكـم وجودهـا بـات بِمُكنـة العالـم أجمـع، أدبـاء ومثقفيـن وحتّـى قـرّاء، الاطِّـلاع علـى مجموعـة نصـوص فـي غايـة مـن الجمـال والرِّقّـة، نسـميها اختصـاراً «المغربيـات»، أي قصائـد السـجن.

- 2 -

وبالنظر إلى هذه المجموعة من قصائد السجن، فإنه يمكن الحديث عن قسمين منها:

أ- الأول، هو قسم يضُمُّ مجموعة من النصوص الشعرية التي نظمها المعتمد، بتأثير من محنة الأسر لديه في أغمات. والملاحظ أنها نصوص تتَّجِه، في خطِّها العام، إلى التعبير عن واقع الحال الطارئ: وصف الغربة، وصف القيْد، وصف فقْر الأهل، رثاء الأبناء، إلخ.

ب- الثاني، هو قسم يشمل مختلف النصوص الشعرية التي قالها الشعراء الأندلسيون، زائرين المعتمد قيْد حياته أو وفاته. ولأن الأخير عُرف بكونه شاعراً كبيراً، احتشد ببلاطه كبار الشعراء على عهده، فإن ذلك الاحتشاد ظَلّ مستمراً بأغمات، وإن بباب سجنه أولاً، وبباب ضريحه ثانياً[1]. ومن بين الإشارات التي يمكن التقاطها، ما جاء في وفيات ابن خلكان من أنه «اجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح، ويجزل لهم المنائح، فرثوه بقصائد مطولات، وأنشدوها عند قبره وبكوا عليه»[2]. إن استقصاء أسماء الشعراء الذين وفدوا على المعتمد، حياً وميتاً، ومن ثم خلّفوا قصائد السجن، أمر منذور للتتبُّع والبحث المشرَّعين على المستقبل.

1- هناك كتاب يعرض لمختلف الشعراء الكبار الذين التقوا بالمعتمد في بلاطه، وهو كتاب يحمل عنوان «المعتمد بن عباد وشعراء عصره» لمؤلفه الدكتور يكن (زهدي). والشعراء الذين يتناولهم الكتاب، هم على التوالي: ابن زيدون، ابن عمار، ابن اللبانة، ابن حمديس.

2- وفيات الأعيان، المجلد الرابع، ص.289.

ونظراً لما اكتسبته تلك القصائد من قيمة فنية- إنسانية رفيعة، إضافة إلى تشكيلها مجموعة متماسكة من حيث الموضوع والرؤية الفنية، فقد بات من المفيد جمعُها، ومن ثم ضمُّها في مجموع واحد. وبذلك الجمع وذلك الضمّ، يمكن أن تصير، بين أيدي الباحثين والمهتمِّين، نصوص يُوحِّدها أكثر من عنوان موضوعي وفني. ونعتقد أن بصنع هذا المجموع الشعري، تَتحصَّل للمُهتمّ بالأدب وتاريخه عدة مزايا.. نعرضها على النحو التالي:

تبئير الموضوع الشعري حول تجربة الأسر/ الموت لدى المعتمد بأغمات.

-توجيه النظر إلى تميز قصائد السجن، في أبعادها الفنية والإنسانية، بالمقارنة مع النصوص الأندلسية.

-الكشف عن طبيعة التواصل الشعري الناشئ بين المعتمد وزواره الشعراء من جهة، وبين المغرب والأندلس من جهة ثانية، خصوصاً في ظِلّ الدعاوى المزعومة عن معاداة المرابطين للأدب، والفنون بصفة عامة.

-إضـاءة بعض جوانب العلاقة الملتبسة، من خلال التركيز على أبعادها الاجتماعية والثقافية والتاريخية، مثلما تقدمها نصوص المجموع الشعري، ناطقة بمعانيها ودلالاتها.

ويُغطّي المجموع الشعري، الذي نقترح نصوصه في هذا الجزء، مدة أربع سنوات بشكل رئيسي. وللإشارة، فإن المدة المعنية تبدأ من سنة 484هـ (سنة الخلع) إلى سنة 488هـ (سنة الوفاة). هذه هي الفترة

الأساسية من حياة المعتمد، من حيث قوة التواصل الشعري المُبدِع والخلّاق. أما بخصوص ما تلا هذه الفترة، فبالتأكيد نحن معنيون بوقوف «بحر بن عبد الصمد» على قبر المعتمد راثياً.. ومن بعدُ بزيارة ابن الخطيب أغمات، بعد مرور عشرات العقود، معتبراً بقصة المَلِك وبشعره[1]. وإذ نقوم باستدعاء الحدث الأخير، إنما نستحضر محنة لسان الدين، التي لها أكثر من عنوان مشترك مع محنة المعتمد، حيث آخر معقل للعرب بالأندلس أشرف على السقوط بأيدي النصارى.

وبصفة عامة، يمكن الإشارة إلى أن المهتمين بجمع شعر المعتمد، إضافة إلى دارسيه، درجوا على تقسيم هذا الشعر إلى قسمين:[2]

شعر المعتمد في سعوده، أي «ما قاله أيام ملكه وإقبال الدهر عليه»، بحسب تعبير المستشرق «آنخل جنثالث بالنثيا» (Angel Gonzalez Palancia). هذا القسم من الشعر يوازي ما يسميه جامع الديوان ومحققه الدكتور رضا الحبيب السويسي شعر الإمارة فالملك.[3] بطبيعة الحال، حسب وجهة نظرنا المُعَبَّر عنها، نحن لا نهتم بشعر هذه المرحلة إلا من بعيد، أي في إطار ما قد يضيء بعض الجوانب، التي لها صلة بموضوع دراستنا هاته.

1- تمت زيارة ابن الخطيب إلى ضريح المعتمد سنة 761هـ ، حسب ما ورد لدى صاحب النفح، المجلد الرابع، ص96.

2- آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة النهضة، القاهرة، 1955.

3- سبقت الإشارة إلى الديوان في موضع سابق من الدراسة.

ب- شعر المعتمد في منفاه، حيث قال الشاعر في أغمات «أصدق أشعاره عاطفة، وأبلغها في النفس أثراً»[1]. ومن جهته، يوازي هذا القسم الثاني من الشعر، حسب رضا السويسي، شعر المَلِك الأسير.

بين القسميْن، يمكن الحديث عن مرحلة فاصلة استغرقت مدة قصيرة، تَمَّ خلالها الخلْع عن الحكم أولاً، ثم الترحيل إلى المغرب ثانياً.[2] وتضمُّ هذه المرحلة، على قِصَرها الشديد، تلك القصائد التي نظمها المعتمد/ أو شعراؤه قُبيْل الخلع (لحظات اقتحام القصر) أو في أثنائه.[3] وفي هذا الإطار، تندرج قصيدته التي قالها، مخاطباً أبا بكر المنجم الخولاني، حين دخل عليه جيش ابن تاشفين.[4] كما تندرج في ذات الإطار قصيدة ابن اللبانة الشهيرة، التي صدرت تعبيراً عن هول صدمة الخَلْع[5].

1- جنثالث آنخل بالنثيا، المرجع السابق، ص.101.

2- تمييز هذه المرحلة من حياة المعتمد مقصود من قبلنا، بهدف استبعاد تلك القصائد التي نظمت خلالها، تحت طائلة عدم نظمها بسجنه في أغمات.

3- بالمناسبة، اقترحنا للقصائد عناوين من عندنا، تسهيلاً لعملية التداول والتواصل.

4- وهي القصيدة التي جاء مطلعها على النحو التالي:

أرمدتَ أَمْ بنجومكَ الرّمدُ؟ فقدْ عادَ ضِداً كلُّ ما تَعِدُ

وإلى جانبها، يمكن الحديث عن قصيدته التي جاءت، بعد حادث الرؤيا الذي تم فيه نعي مُلكه. والقصيدة، في مطلعها، هي:

مَنْ عزا المجدَ إلينا قدْ صدقْ لم يُلَمْ مَنْ قالَ- مَهما قالَ- حقّ

5- القصيدة طويلة وقوية، في مطلعها نقرأ:

تبكي السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادِي على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ

- 3 -

بالنظر إلى مختلف تلك الملاحظات المُقدَّمة، يهمنا من شعر المعتمد القصائد التي نظمها بسجنه في أغمات. والملاحظ أن لصلتها بالعدوة الجنوبية، أكثرَ من وشيجة وسبب. ولعلّ أهمَّها، مما يقوي صنع هذا المجموع الشعري، أنها:

أ- منظومة في المغرب، مؤشرها على ذلك الإحالة، ضمن ثناياها، إلى بعض المدن المغربية، مثل: فاس، طنجة، أغمات، وغيرها.

ب- مستوحاة من صلب معاناة الأسر، وهي معاناة اقتضت تفاصيل دقيقة عن واقع السجن، مرفوقاً بالحديث عن الزوار من الأندلسيين من جهة، وعن رفاق السجن من أهل فاس، مثلاً، من جهة ثانية. وفي أثناء هذه المعاناة، لا يجوز عدم الالتفات إلى ازدياد الحاجة والفقر، ما أدى بالشاعر إلى وصف حال بؤس بناته.

مُؤرَّخة زمنياً، من خلال الإشارة إلى تاريخ كتابتها، أو ذكر بعض سياقاتها في السجن بأغمات، مثلما نستشفّ ذلك من كتابات بعض مؤرخي الأدب الأندلسي في المرحلة المقصودة[1].

أما بخصوص الوافدين على المعتمد من الشعراء، فإن قصائدهم

1- نستثني من ذلك قصيدة ابن حمديس التي مطلعها:

جرى بك جد بالكرام عثور وجار زمان كنت فيه تجير

فالقصيدة جد متعالقة مع قصيدة المعتمد:

غريبٌ بأرضِ المَغربيْنِ أسيرُ سيبكي عليهِ مِنبرٌ وسرير

ثم لا شيء يحيل إلى مكان كتابة القصيدة، بحيث لا نجد لذلك أية إشارة لدى محقق ديوان ابن حمديس الدكتور إحسان عباس.

المكتوبة في هذا الإطار أجلى وأوضح. ويرجع الوضوح والجلاء في الأمر، إلى ثبوت الزيارة تاريخياً من جهة، وثبوت قصائد تناولت موضوعة المعتمد أسيراً من جهة ثانية.

بالنسبة للمعتمد وابن اللبانة وابن حمديس، فقد اعتمدنا على ما تَمَّ جمعُه من نصوص من قِبَل كل من رضا السويسي، منجد مصطفى بهجت وإحسان عباس بالتَّرتيب. هذا، في حين كان الرجوع ضرورياً إلى مصادر الأدب والتاريخ والتراجم، في ما يتعلّق بجمع نصوص الشعراء من زُوّار المعتمد، ممن نقدِّر أنهم لا يتوافرون على دواوين مجموعة، أو ممن يتعذّر الحصول على دواوينهم لسبب من الأسباب.[1]

وبالمقارنة بين قصائد السِّجن، المعتمدية وغير المعتمدية، تحْسنُ الإشارة إلى أن الأولى تتضمن ثمانية وثلاثين عنواناً شعرياً، في حين لا تتضمن الثانية أكثر من ثلاثة عشر عنواناً شعرياً.[2] غير أنه بالرغم

1- بالنسبة لقصائد الشعراء الوافدين على المعتمد في أغمات، من المناسب الإشارة إلى أننا سنعتمد على المصادر التي تتوافر فيها تلك القصائد على أكبر عدد من الأبيات. ولأن الأمر لا يتعلّق بالتحقيق، فإننا سنغض الطرف عن الاختلاف الملحوظ في وجود بعض الكلمات بدل أخرى، من مصدر إلى آخر.

2- نحبذ الحديث، هنا، عن العناوين الشعرية، نظراً لكون ما كتبه المعتمد من شعر، في القسمين معاً، يضم أبياتاً مفردة، وثانية مثناة، وثالثة لا تتعدى الأبيات الثلاثة أو الأربعة أو الخمسة. وبذلك، يكون القليل منها ممن تجاوز العشرة.. غير أن أطول شعر كتبه في القسم الأول من حياته، قصيدته التي توجه بها إلى أبيه، مستعتباً له. والقصيدة تتضمن أربعين بيتاً، ومطلعها هو:

سَكِّنْ فؤادكَ لا تذهبْ بكَ الفِكَرُ ماذا يُعيدُ عليك البثُّ والحَذرُ؟

أما أطول شعر قاله المعتمد في القسم الثاني، وهو أسير في أغمات، فيتمثل في القصيدة

من ذلك، فإن عدد الأبيات في «غير المعتمدية» يفوق عددها في «المعتمدية» (291 مقابل 250) وهو أمر يفسِّره وجود مُطوَّلات شعرية بالنسبة للمجموعة الثانية، خصوصاً قصيدة أبي بكر بحر بن عبد الصمد. وبالنظر إلى شعراء القصائد غير المعتمدية، يمكن حصر أسمائهم في ما يلي:

- أبو بكر بن اللبانة [1].
- أبو بكر بحر بن عبد الصمد.
- ابن حمديس الصقلي.
- أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر.
- أبو عبد الله بن إبراهيم الحجاري.
- لسان الدين بن الخطيب.

التي قالها راثياً ابنيه المأمون والراضي القتيلين. والقصيدة تتضمن ثمانية عشر بيتاً، مطلعها هو:

يقولونَ صَبراً لا سبيلَ إلى الصَّبرِ ... سأبكي وأبكي ما تَطاولَ من عُمري

1 - هناك قصيدتان أخريان، غير ما سنعتمده في هذا الباب، نظمتا بعد الخلع من قبل ابن اللبانة،إحداهما شهيرة شهرة واسعة، وهي التي ينهض مطلعها على النحو التالي:

تبكي السّماءُ بمزن رائحٍ غادي ... على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ

والثانية ينهض مطلعها على النحو التالي:

بُروقُ الأماني دونَ لُقياكَ خُلَّب ... وشَرقُ أفقٍ لمْ تَلُحْ فيهِ مَغربُ

- 4 -

يندرِج جزء وفير من المغربيات في إطار غرض رثاء الدول/ الإمارات. وإن ألفينا لهذا الغرض نماذجَ من شعر العصور المُتقدّمة، فإن في العصر الأندلسي غدا الغرض المذكور واضحاً في معالمه الفنية الكبرى، إضافة إلى استقراره بتأثير من الأحداث المُتلاحقة، التي شهدتها العُدوة الأندلسية[1]. والمُلاحظ أنه إضافة إلى رثاء الإمارات، هناك شكلان آخران، هما[2]:

أ- رثاء المدن؛

ب- رثاء الديار.

وللإشارة، فإن كثيراً ما كان يرادف سقوطُ المدن سقوطَ الإمارات، بفعل سيادة حكم ما سُمِّي ملوك الطوائف. فنظراً لطبيعة التشرذم الحاصلة عصرذاك، باتت كل مدينة أندلسية محتضنة إمارة، على رأسها أمير لا يفتأ أن يدخل في صراعات مع أمراء/ ملوك مجاورين، لأجل توسيع تراب إمارته، ومن ثم تقوية نفوذها على حساب الإمارات الأخرى.

من جهة أخرى، يمكن الحديث عن مرحلتين من رثاء المدن:

أ- مرحلة ما سُمِّي حركة الاسترداد الأولى، وعنوانها الأكبر سقوط

1- في ما يخص رثاء الدول في الشعر العربي بالمشرق، يمكن مراجعة قصيدة البحتري في إيوان كسرى. والحقيقة أن هذه القصيدة تندرج في إطار الاستعبار أكثر من الرثاء.. الاستعبار بالدول المنفرطة، وصنيع الدهر بها.

2- الشكعة (مصطفى)، المرجع السابق، ص.512.

مدينة «طليطلة» في أيدي القشتاليين سنة 478هـ. غير أن ظهور المرابطين على مسرح الأحداث، في تلك الفترة، كان بمثابة العامل الحاسم الذي وقف حائلاً أمام تمدّد حركة الاسترداد إلى حين.

في هذا الإطـار، أي غزو طليلة، غدا رثـاء المدن يعلن عن نفسه بصورة جَلِيَّة وقويَّة. ومن أهم شعراء طليطلة الذين فُجِعوا بسقوطها، نجد الشاعر المعروف بابن الغسال، أي عبد الله بن فرج اليحصبي. والغريب أن السقوط المدوي لمدينة كبيرة، مثل طليطلة، كان بمثابة باعث على الأسى من استمرار الأندلس بأيدي العرب المسلمين.

يا أهلَ أندلسٍ شُدّوا رِحالكمُ فما المُقامُ بها إلّا منَ الغلطِ إضافة إلى طليطلة، وقع سقوط مدينة «بلنسية» سنة 488هـ. وقد نهض لرثائها شعراء كبار، من قبيل ابن خفاجة، ابن الزقاق، والرصافي الرفاء. ومما نقرأ لشاعر الطبيعة في مدينته، مثل هذه الأبيات التي حوّلت ابن خفاجة من شاعر جمال ورقة إلى شاعر ألم وحسرة.

عاثتْ بِساحتكِ الظّبا يا دارُ ومَحا مَحاسنَكِ البِلى والنّارُ

ب- مرحلة الاسترداد الثانية[1]، وهي المرحلة التي شهدت فيها حركة الاسترداد أَوْجَها، بفعل النكبة التي شهدها المسلمون إثر معركة «العقاب» الشهيرة.

في هذه الأثناء، سيتم غزو بلنسية للمرة الثانية سنة 635هـ. وقد كان

1- في الواقع، قامت حركة الاسترداد الثانية إبان فترة ضعف حكم المرابطين، حيث أخذت أوراق الأندلس تتساقط الواحدة تلو الأخرى، مثل سرقسطة وطرطوسة وشنترين وماجة وغيرها. إلا أن قيام حكم الموحدين عجل بتحرير ما تم أخذه من مدن. هي فترة قصيرة إذاً، لم يكن لها تأثير كبير، ومن ثم كان ذلك عاملاً على التغاضي عنها.

ذلك سبباً في أن يستصرخ أمير بلنسية زيان بن مردنيش أبا زكريا بن حفص، موفِداً إليه العالم والشاعر ابن الأبار القضاعي، الذي قال قصيدته الشهيرة بين يدي حاكم إفريقية، والتي مطلعها:

أَدرِكْ بخيلِكَ خيلَ اللّهِ أندلساً!   إنّ السبيلَ إلى مَنجاتها دَرَساً

بالموازاة مع بلنسية، سيكون سقوط مدينة «إشبيلية» بعد عشر سنوات، وبالضَّبط سنة 645هـ. وقد تصدى لرثاء سقوطها أحد شعرائها الأفذاذ، وهو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، وذلك برائيته التي أتى مطلعها على النحو التالي:

وردا! فَمضْمونٌ نجاحُ المصدرِ   هي عِزّة الدُّنيا وفَوزُ المَحشَرِ

- 5 -

أشرنا إلى تماهي رثاء المدن مع رثاء الإمارات، بدعوى أن سقوط الأولى هو بمثابة سقوط للثانية. غير أن هذا التماهي سرعان ما تخفُّ درجته، نتيجة لبروز الإمارة بصفتها عنواناً للقوّة والجاه والحضارة. الإمارة يجري اختزالها، هنا، في الأسْرة الحاكمة. في هذا الإطار، لا يكون معنى لمدينة إشبيلية بدون أسرة بني عباد. وبحسب هذا الفهم، يعتبر سقوط المدينة مدوياً، خصوصاً حين تكون الأسرة الحاكمة ممن يحسب لأهلها حساب، في سُلَّم الرّفعة وعُلُوّ الشأن.

ها هنا، يمكن الحديث عن إمارتين من أَجَلِّ إمارات الأندلس. الأولى دائرتها إشبيلية، تحت حكم بني عباد. أما الثانية، فدائرتها

«بطليوس» و«ماردة» تحت حكم بني الأفطس/ المظفر. ولعلّ من بين أسباب أهمية هاتين الإمارتين، أن ترادفت فيهما سلطة القوة مع سلطة الأدب والعلم والفن. وقد قُيِّض لدولة بني عباد أن يتولى شؤون حكمها شعراء كبار، يأتي في مقدمتهم المعتمد بن عباد. أما في ما يخص دولة بني الأفطس، فقد تولّى حكمها رجالات أدب وعلم أيضاً، من أهمهم شأناً مُنشئها الأول الأديب العالم محمد بن المنصور بن الأفطس التجيبي (الملقب بالمظفر).

من المثير للانتباه، بهذا الصدد، القولُ إنه إذا كان سقوط المدن من توقيع ملوك قشتالة، فإن سقوط الإمارات كان من توقيع المسلمين أنفسهم، على أيدي المرابطين بقيادة ابن تاشفين. وبمعنى آخر، فقد قام سقوط المدن سبباً في سقوط الإمارات. فمثلما تمّت الإشارة إليه في ثنايا الفصل السابق، فإن تنادي المسلمين لإنقاد الأندلس من الضياع الكامل، كان ذريعة لأمير لمتونة للقضاء على حكم ما سُمِّي ملوك الطوائف.

هكذا، كان رثاء الإمارات رثاء للأُسَر التي حكمتها من جهة أخرى. وبالرغم من أن الأمر ظَلّ في أيدي المسلمين، فإن بكاء الإمارات الغاربة على أيدي المرابطين تميَّز بحرارة قوية.. لا توازيها إلا حرارة بكاء الأندلس قاطبة، بفعل سقوطها التّامّ والنهائي. كذلك، انتهى الحال بالنسبة لدولة بني عباد، تلك الدولة التي وفَّر اجتماع أهم شعراء الأندلس فيها وقتذاك، فرصاً لأن تُبكى بقصائد من أحرّ ما نُظِمَ في رثاء الإمارات وأصدقه على الإطلاق.

لقد كان من نصيب دولة بني الأفطس، غُرَّة الشاعر الوزير ابن عبدون في رثاء ملكهم الـدارس. ومن مجموع أبيات القصيدة، نكتفي بهذه الأبيات دلالة على الغرض المُراد:

اَلدّهرُ يفجعُ بعَد العيْنِ بالأثـرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّـورِ

أنْهاكَ أنْهاكَ لا آلـوكَ موعظـةً عَن نومةٍ بينَ نابِ اللّيثِ والظُّفُـرِ

فَالدَّهرُ حرب وإنْ أبدى مُسالمـةً والبِيضُ والسُّمْرمثلُ البيضِ والسُّمرِ

ولا هَـوادة بـينَ الـرَّأسِ تُأخــذه يَدُ الضِّرابِ وبينَ الصّارمِ الذَّكـرِ

فلا تغرنّكَ مِنْ دُنياكَ نَومتهــا فما صناعةُ عينيها سوى السَّهـرِ

أما بالنسبة لدولة بني عباد، فقد كان من نصيبها عدة غُرر لا تبدأ بما نظمه شاعر المعتمد ابن اللبانة، ولا تنتهي بما نظمه شاعره الآخر ابن عبد الصمد. ولأن أهم الغُرر بهذا الخصوص، قد تمّ ضمها في المغربيات، فإن هناك قصيدة ذات قيمة فنية عالية لم يجرِ ضمها في المجموع، بفعل نظمها بُعَيد خلع المعتمد مباشرة. القصيدة الرثائية هاته، التي جاء نظمها على لسان ابن اللبانة بالأندلس، ترد أبياتها الأولى على النحو التالي:[1]

تبكي السّماءُ بمُزنٍ رائحٍ غـادي على البهاليلِ من أبناءِ عبـَّادِ

على الجبالِ الّتي هُدَّتْ قواعدُهـا وكانتِ الأرضُ منهم ذاتَ أوتـادِ

1- ديوان ابن اللبانة، من ص. 129 إلى ص. 132.

والقصيدة طويلة، بلغت أبياتها ستة وخمسين بيتاً، تنتهي على النحو الدال التالي:

لقاكمُ اللهُ خيراً إنّكم نَفَـــــرٌ لمْ تَعرفوا غيرَ فعلِ الخيرِ من عادِ

إنْ كانَ بعدكمُ في العيشِ من أَرَبِ فكانَ من غُصص عيشي وأنكـادِ

والرابياتُ عليها اليانـعاتُ ذَوَتْ   أزهارُها وغدت في خفضِ أوهادِ

عريسةٌ دخلتها النّائباتُ علـــى   أســـاودٍ لـهـم فـيـهـا وآســـــادِ

وكعبةٌ كانتِ الآمـالُ تَخدُمُهـــا   واليومَ لا عاكفٌ فيها ولا بـــادي

تلكَ الرِّماحُ رماحُ الخطِّ ثَقّفهـــا   صَرفُ الزَّمانِ ثِقافا غيَر مُعتـــادِ

والبيضُ بيضُ الظُّبى فُلَّتْ مضاربُها   أيْدي الرَّدى وثَنتها دونَ أغمـــادِ

إن غياب القصيدة عن المجموع الشعري، لا يعني غياب الاستعانة بما جاء فيها، في ما يتعلّق بتحديد فن رثاء الإمارات.. رثاء إمارة بني عباد موضوعنا الآن. من جهة أخرى، لا ينبغي أن يغيب أن رثاء دولة بني عباد كان من اختصاص المعتمد نفسه، قبل غيره من شعراء بلاطه بمعنى من المعاني[1]. على الأقل، ذلك ما يمكن استنتاجه من قصيدته، مخاطباً المُنَجِّم أبا بكر الخولاني:

أرمـدتَ أم بنجومك الرّمـــدُ؟   فقـدْ عـادَ ضِـدّاً كـلُّ ما تَعِـدُ

إلى أن يقول في نهاية القطعة:

المُلكُ لا يُبقي على أحـــدٍ،   والمـــوتُ لا يَبقى لَـهُ أحَـــدُ

وفي قصيدة أخرى، يتضح أكثرَ رثاءُ المعتمد لدولته، وذلك بعد أن رأى في منامه انفراط عقد إمارته.

1- الأمر يتعلق بقصيدتين لم يتمّ إدراجهما ضمن قصائد السجن، بحكم عدم نظمهما في المغرب. قصيدته التي جاءت جوابا عن الرؤيا، نظمت قبل انفراط عقد بني عباد في الأندلس.. في حين قصيدته التي جاءت خطاباً موجهاً إلى مُنجِّمه، فإنها نظمت في أثناء دخول جيش ابن تاشفين عليه.

مَنْ عزا المجدَ إلينا قدَ صــدق، لم يُلَمْ من قالَ- مهما قالَ- حَــقْ
أيُّها الناعي إلينا مجدَنـــا، هل يَضُرُّ المجدُ أن خطبٌ طَــرَقْ؟
لا نُـــرَعْ لـلـدَّمعِ في آماقِـنـا مَزَجَتْهُ بِـدَمٍ، أيـدي الحـُــرَقْ

- 6 -

تُشكِّل قصائد السجن مجموعاً شعرياً واحداً، خصوصاً في ائتلاف معظمها حول موضوع رثاء دولة بني عباد. غير أن هناك قصائد تختص بالرثاء أكثر من غيرها. ذلك ما يظهر في بعض قصائد المعتمد بالتحديد، تلك التي تفرغت لجوانب أخرى، مما يتعلّق بحياة الأسر في أغمات. والواقع أنه حتّى هذه القصائد، في خطوطها العريضة، ظلّت ترتبط بسبب من الأسباب بالإطار العام. فحياة الشقاء في السجن، كانت تدعو إلى الرثاء بصورة من الصور. فمما لاشك أن يستدعي بؤس بناته مثلاً، حياة القصور السالفة في إشبيلية، ومن ثم رثاء ما كان يسودها من نعيم وسعادة.

وفي محاولة لاستعادة أبرز الموضوعات، التي خاض فيها المعتمد، يمكن الاستعانة بالتصنيف الآتي:

أ- وصف حياة الأسر، من خلال التركيز على القيْد، قلَّة ذات اليد، بؤس البنات، الحديث إلى الزوجة، العلاقة بأسرى من أهل فاس، وغير ذلك من جوانب لصيقة بيوميّات السجن.

ب- مراسلاته الشعرية للوافدين عليه من شعرائه الخُلَّص، مع ما

كانت تقتضيه من جواب ورد جواب. والملاحظ أن تلك المراسلات لم تكُفَّ عن أن تَنِمَّ عن عِزّة نفس، وأخلاق كريمة.

ج- الحنين إلى الديار، وحياة القصور فيها، مع ما كان يرافق ذلك من إحساس بالغربة في أغمات. وللإشارة، فإن هذا الحنين كثيراً ما كانت تواكبه أبيات، يبثها المعتمد بكاءه على دولته ورثاءه لملكه الغابر.

د- الفخر بالماضي التليد لبني عباد، سواء في سابق مجدهم بالمشرق أم بالأندلس. وقد كان ذلك الفخر يدور حول عدة قيم، عناوينها: عراقة النسب، شدة البأس، سعة الكرم وقوة الدين.

هـ- الاعتبار بالحال الطارئ بعد العِزّ والمجد، الأمر الذي استدعى غير قليل من جوانب النزعة التأملية، التي غالباً ما كانت تؤول إلى نوع من الزُّهد، المختلج حِكَما وعِبَراً وأمثالاً.

و- رثاء الأبناء، ومنهم الرّاضي والمأمون بالخصوص. وقد تمثَّل ذلك في ثلاث قصائد، تعتبر من بين أرقِّ ما كتب المعتمد في خلال سجنه، باعتبار تركيزها على العاطفة الأبويّة المُجرَّدة من أي شيء آخر.

ز- رثاء النفس، مثلما تجلّى في قصيدته التي أمر أن تُكتب على ضريحه. والعجيب أن الرثاء اقترن بالفخر القويّ هنا، حتى لكأنّ في ذلك تحدياً للموت.

- 7 -

لا غرابة في أن يكون رثاء المعتمد لنفسه، أو حتى لأبنائه، رثاءً لدولته ولمُلْكه فيها.. والعكس صحيح. يبدو الأمران مرتبطين إلى حد بعيد، نتيجةً لارتباط المعتمد الشخص بالمعتمد المَلِك. ومن ثمّ، فغالباً ما كان يصير رثاء أحدهما رثاء للآخر، مثلما كان يفصح عنه غير قليل من الأبيات الشعرية. وإن كانت قصائده بهذا الخصوص، لا تستقيم في إطار رثاء الدول إلا بشكل عام، فإن قصائد لبعض شعرائه ممن اختصوا ببلاطه، كان لها الفضل الكبير في تطوُّر هذا الفن ونُضجه واكتماله.

وإن شئنا تضييق مجال قصائد السجن، في تلك التي اقتصرت على المعتمد وعلى رثاء دولته، فإن لا سبيل غير حصرها في قصيدتين مهمتين: إحداهما لابن اللبانة، وضعنا لها عنواناً هو «لكل شيء.. ميقات»، أما الثانية فهي لابن عبد الصمد، والعنوان الذي وضعنا لها هو «ملك الملوك». القصائد الأخرى لا ترتبط إلا بسبب بفن الرثاء، بدليل صدورها والمعتمد قيْد حياته. هذا السبب يتمثل في كون الخلع بات يرادف الموت بمعنى ما. ذلك أن ملك إشبيلية جرى رثاؤه، بعد أن تمَّ خلْعه عن كرسي حكمه مباشرة[1].

وقد اتَّضح الأمر، بالنسبة لامتزاج رثاء الدول برثاء الأشخاص، فلا سبيل هناك غير تفحّص خصوصية فن الرثاء في القصائد

1- خير مُعبِّر عن ذلك، قصيدة ابن اللبانة المشار إليها آنفاً: تبكي السماء بدمع رائح غادي (إلخ).

المذكورة. وقبل ذلك، يمكن الحديث عن الرثاء، بوصفه أحد فنون الشعر العربي الرئيسية، إلى جانب المدح، الغزل، الفخر والهجاء. والملاحظ أن مدار مختلف الفنون المذكورة، تلك القيم المُشكِّلة لبنية الشخصية المثالية في المجتمع العربي وقتـذاك. الكرم، المروءة، الحِلم، التديُّن، النسب،.. تلك بعض من القيم التي ظَلّ يضعها الشاعرالعربي نصْب عينيْه، وهو يتوخّى سواء الرفع من قيمة الشخص، أم الحطّ منها، أم البكاء عليها.

من جهة أخرى، كثيراً ما كنا نجد أنفسنا في إطار المدح، وإن كان المقام الأول مقام رثاء أساساً. الفرق بينهما يحكمه السياق، الذي اندرجت في كنفه القصيدة. والسياق ذو بعد خارجي، يُسميه البعض مقاماً حيناً آخر. وأمام هذه الحقيقة، تبدو القصائد، في معظمها، كأنها استمرار لقصائد المدح، التي كانت تُلقى بحضرة المعتمد في أَوْج مُلكه. فلولا المعرفة بمقامات القصائد، إضافة لبعض أبيات البكَاء الصريحة، لبتنا بصدد المديح بالنسبة لمعظم تلك القصائد.

انطلاقاً مما سبق، يمكن القول إن الرثاء يمتزج بالمديح في بنيته العميقة. وإن التزمنا الدقة أكثر، فليس بين أيدينا غير التمييز بين بنيتين متجاورتين، ولكن يهيمن المديح فيهما على الرثاء. سواء كان الممدوح حياً أم ميتاً، لا يحدث الأمر أي فرق جوهري، اللهم بعض عبارات البكاء، والحكي بصيغة الماضي. والحال كذلك، يمكن الشروع، الآن، في حصر خصال المرثيّ/ الممدوح، ضمن سياق عام ألا وهو رثاء دولة بني عباد.

- 8 -

مثلما ذكرنا آنفاً، لا تشذ بنية المديح عما تَكرَّس لدى مختلف الشعراء العرب. والموضوع يكمن في إضفاء صفات، من أرقى ما يمكن أن تحوزها شخصية مثالية في الوسط العربي القديم. يمكن تتبُّع تلك الصفات، لدى شعراء المعتمد، في مختلف قصائدهم.

ولعلّ أهم صفة بهذا الشأن، خصوصاً مما يتصل بالمُدّاح أنفسهم، هي صفة الكرم. ولا يجوز أن ننسى، في هذا الإطار، ما تمَّ الإلماع إليه من أن المعتمد كان قِبلة الشعر المزدهرة في عصره، نظراً لانبساط يده في ما يتعلّق بإكرام الشعراء. ما يؤكد ذلك أن بعد انفراط حكم بني عباد، سيعاني الشعراء ركوداً من حيث رواج شعرهم، إلى درجة أن غدا ذلك الركود موضوعاً شعرياً لدى شعراء تلك الحقبة. هناك قصص حيَّة كثيرة، خصوصاً مع إدبار المرابطين عن الشعر وأهله، حسب ما يحكي أكثر من مؤرخ.

مَنْ يَبذُلُ الآلافَ للــــزُّوارِوالـــ مُـــدّاحِ والقُـصّـــــادِ والـــوُرّادِ

لو أصبحَ الطّائي في ذا العصرِ لمْ يُــدركْ بقـولِ الشِّعرِ قـوتَ مُـرادِ

إذاً، ما هي أمثلة الكرم التي كان المعتمد موضوعها؟ ما هي طبيعة صورها؟ ما هي خصوصيتها؟ في بيت لابن حمديس، يتضح قدر الكرم لدى ملك إشبيلية، بصفته كرماً لا حدود له.

وكنتُ أملُّ الجودَ منكَ وأنتَ لا تملُّ عطاءً منهُ يأتي على الوفرِ

ومما يقرر ذلك الكرم في الذهن والخيال، أنه جاء مقترناً بملل

الممنوح من كثرة تلقي العطايا.. دون ملل المانح، على الرغم من تردد عطاياه وسعتها. كيف يمل من ليس هو في موقف الملل، في حين لا يمل من هو واقع في موقفه؟ تلك صورة فنية في غاية من المفارقة، نجحت في تقرير قدر الكرم لدى الممدوح، الذي ليس له حدود بحسب ما جاء في البيت. وعدم الملل من العطاء، يرتبط بمعنى آخر هو النسيان.. نسيان ما يتم عطاؤه، دلالة على أصالة الجود في نفس صاحبه.

وفي هذا الإطار، يأتي بيتا أبو عبد الله بن إبراهيم الحجاري، وقد زار المعتمد في سجنه بأغمات:

آليتُ ألا أقبلَ إحسانَكم — والدَّهرُ فيما قدْ عراكم قَد مُسي

ففي الّذي أسلفتم غُنيةٌ — وإن يَكنْ عندكم قدْ نُسي

وأما شاعره الأثير ابن اللبانة، فقد جاء في إحدى صوره ما يلي:

أنتَ للفضلِ كعبةٌ ولو أنِّي — كنتُ أستطيعُ لاستطعتُ الطّوافا

ليس أبْعدَ مدى من أن يصير الفضل كعْبة، يكون الممدوح في قلبها موضوعاً للطّواف. من خلال هذا المعنى، الذي تمَّ التوسل إليه عبر التصوير البصري، يكتسب المعتمد بعداً دينياً، باستحقاقه الطواف.. كأنه كعبة، ليست قبلة للدين وإنما للعطاء والكرم.

إن الكرم خصلة أصيلة في الملِك/ الشاعر، لا تكاد تفارقه في أوقات سَعته وشدّته. والواقع أن الأخير قدَّم أكثر من دليل على جوده وعطائه، حسب ما تناقلته كتب التاريخ والأدب. ومع ذلك، حسبُنا بعض ما جاء من صور لدى شعرائه، الذين خبروه في سعته بإشبيلية

أو في محنته بأغمات.. ومنهم ابن اللبانة نفسه، الذي يقول متعففاً من عطاء المعتمد، وهو في غربته يعاني شظف العيش:

حــاشَ للّهِ أن أُجِيــحَ كَـريمــاً يَتشكّى فـقـراً وكـمْ سَـدَّ فَقرا

كما يقول كذلك، مُتحدّثاً عن استمرار ممدوحه على سمْت العطاء، لا يقصر له حبل إلى ذلك، لا في القديم/ العِزّ ولا في الحاضر/ الأسْر:

أَمُلبسي النُّعمى قديماً، ومثلها حديثاً، وأحداثُ الزمانِ عِظامُ

يـبـدو أن الـكـرم الــذي ارتـبـط بالمعتمد، هـو سـمـة تشكّلت شعـرياً لتقرر وجْـه الإطــلاق. الإطــلاق، هـنـا، يعني مـجـاوزة الـحدّ فـي الـكـرم. وقـد يـرد هـذا المعنى بـصـورة حـرْفـيـة، كما نـلاحـظ فـي بيت ابـن الخطيب، مُستعمِلاً صيغة التفضيل.

لِمْ لا أزوركَ يا أندى المُلوكِ يداً ويـا سِـراجَ اللَّيالي المُدلَهِمّات

بل إن الإصرار على المبالغة في مجاوزة الحدّ، ينتهي بابن اللبانة إلى أنْ ليس للمكارم بعد ممدوحه حياة.

لَــمْ تمـتْ إنّمــا المـكــارمُ مـاتـتْ لا سقى اللّهُ بعدكَ الأرضَ قَطْرا

وسـبـق أن ضـمَّـن الـشـاعـر نفس المعنى قـصـيـدتَـه، تلك التي نظمها بعد الخلع مـبـاشـرة. والمعنى جـاء فـي بيتين، هما:

يا ضيفُ أقفرَ بيتُ المَكرُماتِ فخذْ في ضَمِّ رحلكَ واجمعْ فضلةَ الـزّادِ

ويا مُؤمِّلَ واديهم لِيَسْــكُـنَــهُ خَفَّ القطينُ، وجفَّ الزرعُ في الوادي

إن صور الكرم في المعتمد عديدة، لم نتوخَّ جردَها جميعاً، كما وردت لدى بعض من شعراء هذا المجموع.. فكيف نبلغ شأواً

منها لدى شعراء آخرين، من قبيل ابن زيدون، ابن عمار، الحصري، وغيرهم؟؟؟ وحسبنا من ذلك، ما قاله ابن عمار صديق المعتمد، قبل أن يعتكر الحال بينهما، ويؤول إلى مقتل ابن عمار على يد صديقه الملِك. ومن إحدى قصائده الشهيرة، نختار التمثيل بالأبيات المادحة التالية:[1]

عبّاد المُخضرُّ نائلُ كفِّهِ والجَوُّ قدْ لبسَ الرِّداءَ الأغْبرا

يختارُ، إذ يهبُ الخريدةَ، كاعِبا والطَّرف أجرد، والحسامُ مجوهرا

ملكٌ إذا ازدحمَ المُلوكُ بموردٍ، ونحاهُ، لا يَردونَ حتّى يصدرا

- 9 -

كثيراً ما كان يرتبط الجود بالشجاعة، في سعي حثيث إلى تحلية الممدوح بأعزّ قيم المروءة العربية. ويمكن القول بأنه لا أهمية للجود، في ظِلّ غياب التحلّي بالبأس والشدّة في الحرب. ينبغي تأكيد أننا بصدد ملِك، لا غرو أن مما يُعينه على تدبير مُلْكه، حسن سياسته، وكذا شجاعته في الإقبال على الأمور العِظام. ومما وَقَر لدى بعض الدارسين، بالنسبة لملِك إشبيلية، أنــه «كان بطل موقعة الزلاقة»[2]، غير مبالين باستعانة الأخير بابن تاشفين، الذي شهد له

1 - القصيدة المعنية، مطلعها هو:
أدرِ الزّجاجةَ فالنّسيمُ قدِ انبرى والنَّجمُ قد صرفَ العِنانَ عنِ السُّرى
والقصيدة مأخوذة من كتاب الدكتور يكن (زهدي)، المرجع السابق، ص.56.

2- الشكعة (مصطفى)، المرجع السابق، ص.533.

التاريخ أكثر من مجد في أكثر من موْقعة.

ومن أمثلة صور الشجاعة لدى المعتمد، ما جاء على لسان أحد شعرائه المُختصّين به، أي ابن عبد الصمد في رثائيته الشهيرة لشخصه ولمُلْكه:

أيّامَ تخفقُ حولكَ الراياتُ فو قَ كَتائبِ الرُّؤساءِ والأجنادِ

والخيلُ تمرحُ والفوارسُ تَنحني بينَ الصِّوارمِ والقنا المَيّادِ

إذْ تحسبُ الهيجاءَ روضاً يانعاً وترى الأزاهرَ منْ ظُبى وصعاد

وكأن بيض المرهفات على الطلى وُرق الحمام على الغصون شواد

ولكم هززت العطف من طرب بها وجررت أذيالاً من الأزراد

وسقيت رمحك ثمَّ من ماء الطلى ورعى حسامك من بنات الهاد

وكأنما في الدِّرع منك ربيعة بين مُكدِّم والحارث بن عباد

إن من يقرأ تلك الأبيات، يخال نفسه في ساحة حديقة وليست ساحة حرب. فالأزاهر والطيور والغصون، تكاد تفيض من جنبات المقطع الشعري. وفي ذلك معنى بليغ عن لامبالاة المعتمد بالحرب، مادام سيِّدَها الأوحد الذي تخفق حوله الرايات..هذا، في حين ظلَّ المرح يأخذ بتلابيب الخيل. في لامبالاته تلك، شجاعة لا تضاهيها شجاعة، ومن ثم يصير إقبالُه على الوغى كأنه إقبال على الروض.

ومثل الجود، كانت الشجاعة سمةً مطلقةً في المعتمد كذلك. ومن الطبيعي أن يتساءل نفسُ الشاعر، بنوع من التعجُّب، عمن يكون أهلاً لشجاعته بعد فقْده.

إنّي لأعجبُ بعدِ فَقدِكَ كيفَ لا تَتكسّرُ الأسْيافُ فِي الأغْمادِ
أيخضبُ الخطيُّ بعدكَ ثغرهُ أو يركعُ الهنديُّ فوقَ الهادي؟
أو يلتقي الشُّجعانُ تحت عجاجةٍ أو يقتضي الميدانُ سَبْقَ جَوادِ
مَنْ يفتحُ الأمْصارَ بعدَ مُحمّدٍ؟ مُن يَعقدُ الرّاياتِ للقوادِ؟

ولعلّ من أجود معانيها في المقطع، تعجُّبُه من عدم تكسُّر السيوف في أغمادها.. حزناً وكَمَداً على فقدان أشجع من كان يحملها. ومن بدائع ابن اللبانة، أن جمع بين الندى والبأس في بيت واحد.
منْ كانَ بينَ النَّدى والبأسِ أنصلُه هنديةٌ وعطاياهُ هُنيداتُ
والجمع بين الندى والشجاعة، هو ما ذهب إليه شاعره الآخر ابن عبد الصمد بقوله:

ورِياسة يَحمي البلادَ رئيسُها يوماهُ يومُ ندى ويومُ جِلادِ

غير أن الشاعرين المذكورين لم يقتصرا على ذلك الجمع وحدهما. فهذا المعتمد، نفسه، يجِدُ الطريق إليهما في هذا البيت:

إذْ يميني للبذلِ يومَ العَطايا، ولقبضِ الأرواحَ يوم الكِفاحِ

ولأن لا شيء أفضل من التشبيه باللَّيْث، في حال التركيز على قيمة الشجاعة، فقد وجدنا الشعراء يصفون المعتمد بالليث/ الأسد.. مثل ابن اللبانة في قوله:

دَروهُ ليْثا فخافوا منهُ عاديةً عذرتُهمْ فلعدوى اللَّيثِ عاداتُ
لهُ المهاباتُ بالأرواحِ آخذةٌ وإن تكنْ أُخذتْ منهُ المهاباتُ

والملاحظ أن استحضار شجاعة المعتمد، كان يوازيه استحضارٌ لحالة

الضَّعف التي بات عليها، بسبب من هوان السجن الذي تعرَّض له.

وأنتَ يا فارسَ الخيلِ التي جعلتْ تَختالُ في عُددٍ منهم وأعدادِ
ألقِ السّلاحَ، وخَلِّ المشرفيَّ فقدْ أصبحتَ في لهواتِ الضَّيغمِ العادي

وإن كانت الشجاعة ثابتة في المعتمد شعريّاً، فإنها لا تصل مدى ما وصلته صفة الجود. والسبب أن هذه الأخيرة ظلّت تلازمه في فترتيْ مُلكه وأسْره، في حين أن الأولى كفَّت بترحيله إلى أغمات أسيراً. ومن ثم، باتت الشجاعة منقطعاً حبلُها عنه.. لا سبيل إليها إلا التمنّي على لسان ابن اللبانة:

لوْ كانَ يُفرجُ عنهُ بعض آونةٍ قامتْ بدعوتهِ حتّى الجَماداتُ

وإلى جانب ما قاله الشعراء بحقِّ إقدام المعتمد، يمكن العودة إلى قصائد الأخير لمعرفة كيف تتفجَّر فخراً بالشجاعة. ومن ذلك، قوله التالي:

وكُنّا إذا حانتْ لحربٍ فريضةٌ، ونادتْ بأوقاتِ الصَّلاةِ طُبولُ،
شَهدنا فكبَّرنا فظلَّتْ سُيوفُنا تُصلِّي بهاماتِ العِدى فَتطيلُ
سُجودٌ على إثرِ الرُّكوعِ متابعٌ هُناكَ بأرواحِ الكُماة تَسيلُ

إلا أن صفة الشجاعة لشدَّ ما تظهر في المعتمد، متربِّعاً على عرش مملكته، حوله الشعراء يتبارون في مديحه. ومن أولئك بالطبع، ابن حمديس في رائعته:

يا مُرْوِيَ الرُّمحِ والأرماحُ ظامئةٌ منَ الأُسودِ الضّواري بالدَّمِ الهَدَرِ
لولا تعشُّقك الهيجاءَ ما ركبَت بك العزيمةُ فيها صهوةَ الخَطَرِ

إذا التظتْ شُعَلُ الأرماحِ وانغمستْ منَ الدُّروعِ على الأرواحِ في غَـدرِ
ومأزقٍ مَزَّقَتْ بيضُ السُّيوفِ بِـهِ ما لا يُرقِّعُهُ الآسونَ بالإبَــرِ
تَحدو عذابَكَ فيه للوغى عَــذَبٌ تَهفوكأيدي الثَّكالى طِشنَ مِنْ حَـرَرِ
جاءتْ صدورُ العوالي فيهِ حاقدةً يَفترُّ مِنها دُخانُ النقعِ عنْ شَــرَرِ
فَكَمْ قُلوبٌ لها جاشتْ مَراجلُها لمّا تَساقطَ جمرُ الطَّعنِ في النّـقَرِ

-10-

إضافة إلى الكرم والشجاعة، تُركِّز قصائد السجن المغربية، في جزء منها، على معنى الإشراق. وقد ورد المعنى في سياق تقابله مع معنى الانكساف. وحتّى بعد مرور عدة عصور، يرجع ابن الخطيب إلى نفس المعنى، في أثناء زيارته لضريح ابن عباد:

لِـمْ لا أزوركَ يا أنـدى المُـلوكِ يـدا ويـا سـراجَ اللّيالي المُدلهِمّاتِ

في أي شيء، يمكن أن يُشكل المعتمد سراجاً، خصوصاً بالنسبة لصاحب «نفاضة الجراب»؟ لا شك في أن تشابهِ المحنة بينهما، يجعل الأخير يستلهِم من ملك إشبيلية كثيراً من الحِكم والمعاني.

أما في ما يتعلّق بمن عاصر المعتمد من شعراء، ففي غير قليل من نصوصهم نجد تركيزاً على صفة الإشـراق وتَهَلُّل الوجه. الإشراق يُرادف الهدى هنا، كما جاء لدى ابن اللبانة:

أُكــرِّرُ لَحظـي في مُحـيّـاكَ إنّــهُ لـنـورِ الـهُـدى فيهِ عليكَ قَسامُ

غير أن الهدى لا يكون له معنى، بدون قيامه على الدين. وبالرغم مما يمكن أن يقال بخصوص الأمر الأخير، في دولة بني عباد وفي قلبها

المعتمد، فإننا لا نعدم شاعراً مثل ابن حمديس يقرر التقرير التالي:

لقدْ صُنتَ دينَ اللّهِ خيرَ صيانةٍ كـأنّـكَ قـلـبٌ فيـِـه وهـو ضميرُ

ومن جهة أخرى، فإن النور، في تقابله مع الظلام، ظَلَّ يتجسد في إطار عام: التقابل بين الماضي والحاضر. فالماضي مشرق، بينما الحاضر مظلم.

أُفكِّرُ في عصرٍ مضى لك مشرقٍ فيرجعُ ضوءُ الصُّبحِ عنديَ مُظلما

وفـي قصيدة أخـرى، يـقـول نفس الـشـاعـر، أي ابـن اللبانة، وإن فـي سـيـاق حـديـثـه عـن ابـن الـمـعـتـمـد فـخْـر الـدولـة:

شَقيقُكَ الصّبحُ إنْ أضْحى بشارقةٍ وأنتَ في ظُلمةٍ فالصُّبحُ قد ظَلما

ومع ذلك، فإن صفة الإشراق تظلّ ملازمة للمعتمد، حتى وهو يعاني ظلمة السجن. ومثل نور الهدى، يبدو أن النور يأخذ طابعاً معنوياً.. وهذا سِرُّ استمرار توهُّجه، حتى بعد وفاة المعتمد، مثلما رأينا لدى ابن الخطيب سابقاً.. ومثلما نرى في بيت ابن اللبانة التالي:

وأعجـبُ منـكَ أنّـكَ في ظـلامٍ وترفـعُ للعُفـاةِ مَنـارَ نُـورِ

ولأن الإشراق هو الأصل في المعتمد، فإن الرجاء من عودة انبعاث نوره ليس ببعيد في أية لحظة. ولذلك، نجد نفس الشاعر يوجه إليه الخطاب، مع ما يتخلل ذلك من الثقة في المستقبل.

تَـأهَّـبْ أن تَـعـودَ إلـى طُـلـوع فليسَ الخسفُ مُلتزمَ البُدورِ

إن مماثلة المعتمد بالبدر، لا تترك مجالاً للشّكّ في الطّلوع: العودة إلى حكم إشبيلية. ونفس المعنى، نجد له مثيلاً في قصيدة لنفس الشاعر:

وإذا مـا الـهـلالُ غــابَ بِـغـيـمٍ   لـمْ يكن ذاك المغيبُ انكِسافا

واستمراراً على نفس المنوال، يقول كذلك:

وأعـجـبُ مـن أفـقِ المـجـرَّة إذ رأى   كُسوفَكَ شمساً كيفَ أطلعَ أنجُمـا

تبدو عودة النور مطلوبة أكثر، بالنظر إلى ما حلَّ من ظلام مُطبق. ولأن المعتمد مصدر انبثاقه، فإن الإطاحة به باتت إطاحة بدولة النور، وإقامة دولة الظلام على أنقاضها. والأمر يأخذ بعداً أقوى بالنسبة للشعراء، أولئك الذين ارتبطت حياتهم بالمعتمد، بفعل إجزال الأخير لهم العطايا والمنائح. وبمعنى آخر، فإن عودة سلطة المعتمد توازيها عـودة أخـرى، يمكن أن نسميها سلطة الشعر. لا مجال للرجوع مرة أخرى إلى ما حكاه الشعراء، عن محنتهم ومحنة الشعر في فترة المرابطين.. ومن هنا، فقد أضحت ظلمة المعتمد ظلمة للشعراء: ذاك في ظلمة السجن، وأولئك في ظلمة البؤس.

صَباحُهم كُنّا نحمدُ بـهِ الـسُّـرى   فلمّا عُدمناه سَرَيْنا على عَمى

غير أن ارتباط هؤلاء الشعراء بالمعتمد، له أكثر من تجلٍّ شعري في قصائدهم. وإذا كان الماضي شاهداً على حدبه، فإن المستقبل لن يشذ عن ذلك، في سياق ترقُّب عودة المُلْك. يمكن أن نقرأ هذا المعنى في بيت ابن اللبانة:

رُويــدكَ ســوفَ توسعني سُـــروراً   إذا مـا عــادَ ارتـقـاؤكَ للسّريـرِ

وســوفَ تُحِـلُّـني رُتَــبَ المـعـالــي   غــداةَ تَحُــلُّ في تـلـكَ القُصـورِ

تــزيـدُ عـلـى ابــنِ مـــروانَ عــطــاءً   بـهـا وأزيـــدُ ثــمَّ عـلـى جـريــرِ

وعلى نفس الطريق، سار ابن حمديس بقوله:

بكيت زماناً كان لي بك ضاحكاً وكسر جناحي كان عندك ذا جسر

وابن عبد الصمد بقوله:

أغرقتني في بحرك الطامي الذي منع الظماء ورود كل ثماد

في ختام الحديث عن صفة الإشراق، يمكن القول بأن أهميتها لا تتحدّد في صفة مُحدّدة، من قبيل الكرم أو الشجاعة. على العكس من ذلك، تتحدّد أهميتها في إمكانية الجمع بين جميع الصفات الإيجابية، التي يمكن أن يحوزها شخص الممدوح. فالإشراق، مُجسَّداً في النور أو النجم أو الصبح، يصير دليلاً إلى الهدى: في الدين والدنيا على حد سواء. وبتعبير آخر، فإن الإشراق صفة عامة تتفرّع عنها صفات جزئية، مثل ما تحدّثنا عنه من شجاعة وكرم. وفي سياق ذلك، لا نعْدم إشارات إلى تطابق الإشراق مع المجْد. ومثال ذلك، ما ورد عند ابن زهر:

لأنك في سماء المجد نجم به لنواظر الدنيا جلاء

يكون المجْد، في نهاية المطاف، حصيلة عدّة صفات تتجسّد في شخص بعينه. ولعلّ أعلى مرتبة من مراتب المجْد، أن تتجسد في هذا الشخص: سعة الجود، قوة الشجاعة، شدة الدين، شرف النسب، ونفاذ البصيرة. ومجموع هذه الصفات، كانت مواضيع للشعراء، لم يتركوا منها معنى في مدحهم للمعتمد. غير أن صفتي الكرم والشجاعة، كانتا من أجلى

الصفات وأقواها. ويمكن إضافة صفة أخرى، هي ما اتصل بالمحتد الأصيل، الذي ألفينا له صدى لافتاً. ومن ذلك، ما قاله الشاعر ابن اللبانة في إشارته إلى أصالة نسب المعتمد.

مَنْ لي بكمْ يا بَني ماءِ السّماءِ إذا   ماءُ السَّماءِ أبى سُقيا الحَشى الصّادي

-11-

إضافة إلى اشتغال بنية المديح، نجد بنية أخرى تمثل الملمح الرئيسي لفن رثاء الدول. تتجلّى هذه في ما يمكن تسميته: بنية البكاء. فالسياق لا يتعلّق بمدح في ظِلّ دولة قائمة، بل يتعلّق بمدح في ظِلّ دولة زائلة. وهنا، يكمن الفرق بين المديحين أساساً.

ولأن الأمر كذلك، فالشاعر في الحالة الأولى يعرض مديحه، ممتلئاً بحاضره، لا تشغله غير اللحظة التي يعيش في أثنائها. أما نظيره في الحالة الثانية، فالشاعر يصدُر في مديحه ممتلئاً بالماضي من خلال استعادته الُمستِمرة له. حاضره حاضر فجيعة، ولذلك فهو يبكي عبر استعادة بعض معاني الماضي. هذا، في حين أن حاضر الأول هو حضور حبور وسرور، بوجود موضوع لقصيدته أساساً، أي بوجود ممدوح له.. وهو أمر لم يكن هيّناً بالنظر إلى شدّة تنافس الشعراء في ما بينهم.[1] وإن تمّت استعادة الماضي، فإن ذلك يتحقّق من خلال

1- في كتاب الدكتور يكن، المذكور سابقاً، جاء عن مولد الحصري ونشأته ما يلي: «ويروى عنه أنه أوفد غلامه إلى إشبيلية فأبطأ المعتمد عنه فقال وقد التزم في الأبيات لزوم ما لا يلزم:

وصْله بالحاضر: الماضي مُتَّصلاً بالحاضر.

انطلاقاً مما سبق، يمكن القول إن بنية البكاء تُمثِّل الإطار العام لقصيدة الرثاء. غير أن ضمن هذه البنية- الإطار، تتحرك بنية أخرى مُجسَّدةً في المديح. وللاقتراب من الموضوع أكثر، تبدو العودة إلى النصوص أمراً مفيداً من هذه الناحية. ولعلّ أوضحَ شيء يمكن المُبادَرَةُ به، انتزاع أمثلة من معجم البكاء نفسه، المهيمن على فن الرثاء. ففي قصيدة لابن اللبانة، وإن كانت من غير قصائد السجن، تطالعنا في أول مطلعها كلمة «تبكي».

تَبكي السّماءُ بدمعٍ رائحٍ غـادي على البهــاليلِ من أبنـاء عـبّادِ

الشاعر، منذ البداية، يعلن عن موضوع قصيدته. الأمر لا يحتمل أي تورية أو تأخير، في ظِلِّ جسامة الحدث الطارئ وجلله. وليكون لذلك وقعه المناسب، فقد جعل الشاعر السّماء هي التي تبكي. فمهما بكى الشاعر، ومعه الخَلْق جميعاً، فإن مقدار ما يذرفونه من دموع لا يوازي جزءاً بسيطاً مما تنقشع عنه السماء.

أكثر من ذلك، يبدو في الأمر مبالغة أخرى ومن نوع آخر. والمبالغة تكمن في التقابل الذي يمكن رسمُه بين السماء والأرض. فبكاء السماء يوحي بالتعاطف الإلهي، ذلك التعاطف الذي من معانيه رفض سقوط دولة بني عباد. وبمعنى من المعاني، يُعتبر فعلُ القيام بذلك مخالفةً بحقِّ رغْبة السَّماء..!!!

نَبِّهِ الركبَ الهَجوعا ولُم الدّهرَ الفَجوعـــاً
حمص الجنّةُ قالـتْ لغُلَامي لا رُجوعـــاً
رحم اللّهُ غلامــــي ماتَ في الجَنَّةِ جوعاً

كان بكاء ابن اللبانة قويّاً فاجعاً. لا شك في ذلك، خصوصاً أن نفس البكاء سرعان ما سيحصل افتقاده في رثائيته الرائعة الأخرى.. التي مطلعُها:

لكلِّ شيءٍ من الأشياءِ ميقاتُ وللمُنى من مَنائيهنَّ غاياتُ

فبعد أن استنفد الشاعر دموعه في البكاء المُعتبِر بالتاريخ، إثر خلْع المعتمد مباشرة، كان أن حلَّ أوان الاعتبار والتبصُّر بتقلبات الزمان وتبدّلات أحواله.. بدون بكاء تقريباً. البكاء يتحوّل من بكاء على المعتمد في شخصه إلى بكاء على ماضي المعتمد. البكاء الأول سمح للعاطفة الذاتية بأن تجيش، وإن تلبَّست لَبوساً تاريخياً أحياناً، بينما البكاء الثاني فسح المجالَ للعِبرة والحِكمة بأن تنطلقا. يمكن القول إن قصيدتيْ ابن اللبانة تتكاملان في الدلالة على الرِّثاء. غير أن هناك شاعراً آخر، وهو ابن عبد الصمد، ستواتيه الفرصة ليجمع بين البكاء والاعتبار في قصيدة واحدة. لنعد إلى مُعجم البكاء، ونقرأ الأبيات التالية من رثائيته:

قدْ كنت أرجو أنْ تُبرِّدَ أدمعي نيرانُ حُزنٍ أُضرِمتْ بفُؤادي

فإذا بدمْعي كُلَّما أَجريْتُهُ زادتْ علي حرارةِ الأكْبادِ

فالعينُ في التَّسكابِ والتَّهتانِ والـ أحشاءُ في الإحراقِ والإيقادِ

العيْن التي تبكي، هنا، ليست عينَ السماء. ليس في الأمر أية تورية تحتاج إلى تحليل. من يبكي في الأبيات الثلاثة، هو الشاعر ابن عبد الصمد بلحمه ودمه. يشهد على ذلك وقوفُه على قبْر المعتمد، مثلما

أعلن عن ذلك في مطلع رثائيته. غير أن الإضافة لدى شاعرنا، تتحقَّق في أن دموع العين المُنسكِبة ليست غير أدلة على ما يُصيب الأكباد من حرارة، بل ومن إحراق.

بموازاة مُعجم البكاء، يحضر معجم الزَّمان بصورة مُتواترة، في إطار دلالته على تقلُّب الحال وتبدُّل شؤونه. وإن شئنا الدِّقّة، يبدو الحديث عن الدَّهر أنْسبَ لموضوعنا. ابن اللبانة خيرُ من وقف على صفة الدهر وحقيقته في قوله:

والدَّهرُ في صِبغةِ الحِرباءِ منغمسٌ ألوانُ حالاتهِ استحالاتُ

وغير بعيد عن المعنى المُراد، نجد لفظة الدَّهر تظهر مرتيْن في قصيدة ابن عبد الصمد.

حتّى إذا ما الدّهرُ أظهرَ حُقده والدَّهرُ للأحرارِ ذو أحقادِ

والدّهرُ أذهبَ تُبَّعاً وجُموعَهُ وأزالَ مُلكَ الأرضِ عن شدّادِ

غير أن الأمر يؤول إلى مقادير، مقادير الزمان.. كما جاء في قصيدة ابن اللبانة:

هي المقاديرُ لا تُبقي على أحدٍ وكُلُّ ذي نفس فيها لآمادِ

على كل حال، مُرادفة الدهر بالزمان حيناً، وبالدنيا حيناً آخر.. أمر سائد في القصائد. والمُسَوِّغ لذلك، الجامع بينها، الدلالة على الحيف، استبدال حال بحال. وهنا، يتمثل معنى آخر من معاني رثاء الدول والإمارات. وفي ذلك، يقول ابن عبد الصمد في الشطر الثاني على وجْه التحديد:

فإذا المَنايا قاطعاتٌ بالمنى والدَّهرُ لا يُردي سوى الأجوادِ

ويقول ابن زهر، أيضاً، في نفس المعنى:

ولكنَّ الزّمانَ بلؤمِ طبعٍ   على الحُرِّ الشَّريفِ لهُ اعتداءُ

ومن أمثلة تبدُّل الحال، نرجع إلى الشاعر ابن عبد الصمد. فبعد تعديد حسنات الماضي وفضائله، سيحلُّ مسار جديد بتركيزه على معطيات الواقع الأليم.

عهدي بملكِكَ وهْو طلقٌ ضاحكٌ   مُتهللُ الصّفحاتِ للقصّادِ

والمالُ ذو شملٍ مُذاذ والنّدى   يَهمي وشملُ المجدِ غيرُ مُذادِ

أيام تخفق حولكَ الراياتُ فو   ق كتائبِ الرؤساءِ والأجنادِ

يستمر الحال على هذا النحو إلى أن ينقلب المسار رأساً على عقب. الماضي كان موضوع المسار الأول، بينما الحاضر يصير موضوع المسار الثاني. مؤشر الزمن لا يتمثل في صيغه النحوية المعهودة.. السياق الدلالي هو المؤشر الفعلي في التمييز بين البنيتين.

حتّى إذا ما الدّهر أظهَر حقدهُ   والدهرُ للأحرار ذو أحقادِ

ألقتْ بأيديها مَعاقلك الّتي   مُلئتْ من العُقبانِ والآسادِ

وتَهَّدمَتْ أركانُ كُلِّ رئاسةٍ   وانهدَّ حولَ الملكِ كلُّ عِمادِ

حين يتمُّ الحديث عن الدَّهر، باعتبار الحيْف المتأصِّل في طبْعه، يُراد منه تأكيد حقيقة مُطلقة. تكمن هذه الحقيقة في قوَّة هذا الدهر اللامحدودة، التي ليس بإمكان أحد أن يقف في وجهها. فإن أصاب دولة المعتمد في مقْتل، فليست الوحيدة في مسار ضحاياه. ها هنا، ينهض معنى آخر من معاني رثاء الدول. سقوط دولة بني عباد ليس لخلل في أمر من أمور تدبيرها، بل لمشيئة الدَّهر وحِكمته على

الأصحّ[1].

العودة إلى ابن عبد الصمد مفيدة بهذا الخصوص.

قالوا أضاعَ الحزمَ وهْي بواطلٌ   نورُ الحقائق للنّواظرِ بادِ

الجميع يسير على طريق الفناء، هذه هي القاعدة المشتركة بالنسبة للدول والأفراد على حد سواء. والقاعدة يترجمها، شعرياً، ابن اللبانة في قوله:

لكلّ شيءٍ من الأشياءِ ميقاتُ   وللمُنى من مَنائيهنَّ غاياتُ

أو في قوله:

لمّا دنا الوقتُ لم تُخلفْ لهُ عِدةٌ   وكلُّ شيءٍ لميقاتٍ وميعادِ

أو في قوله:

هي المقاديرُ لا تُبقي على أحدٍ   وكلُّ ذي نفسٍ فيها لآمادِ

بعد التسليم بالمبدأ/ القاعدة، يهون أمر تعديد الأمثلة من التاريخ. وفي هذا الإطار، ينهض معنى آخر من معاني رثاء الدول. ففي شعر الرِّثاء من هذا النوع، لا تكاد تخلو قصيدة من إشارة إلى ما أصاب الدِول السالفة من مصائب وكوارث[2]. في دالية ابن اللبانة أمثلة لذلك، وإن ظَلّ سقوط بني عباد يأخذ بفكره وخياله، بالمقارنة مع أي شيء آخر.

1- غير أن المثال الاستثناء بهذا الخصوص، ما ورد عند ابن اللبانة في بيت معزول عن سياقه العام:

تَمسّكتْ بعُرى اللّذاتِ ذاتهمُ   يا بئسَ ما جنتِ اللّذّاتُ والذّاتُ

2- يمكن الاستثناء من ذلك ثائية ابن اللبانة: لكل شيء...ميقات.

وأُسوةٌ لهمْ في غيرِهمْ حَسُنَت فما شماتةُ أعداءٍ وحُسّاد

إن يُخلعوا، فبنو العباسِ قد خُلِعوا وقد خَلَتْ قبلَ حِمصٍ أرضُ بغدادِ

تقولُ فيهم، وهمْ أعلى بَرامِكةٍ فالحالُ كالحالِ، إفسادٌ كإفسادِ

نفس المعنى يأخذ منحى قوياً لدى ابن عبد الصمد أيضاً

حازتْ بنو العبّاسِ مُلكَ أُميَّةٍ وهُمْ ذوو الأعدادِ والأمدادِ

ورأى معاويةٌ عليّاً هالِكاً وعليٌّ الليثُ الهزبْرُ العادي

والدهر أذهب تُبّعاً وجموعه وأزال ملك الأرض عن شداد

-12-

في سياق الحديث عن الدَّهر، وفِعله في الدُّول والممالك، وجدنا في بعض نصوص الرثاء تركيزاً على معنى الانقلاب من حالة النور إلى حالة الظلام. الماضي يُشَكِّل وجْه النور، بينما يشكل الحاضر وجْه الظلام. وفي هذا المعنى، نقرأ أبياتاً مُتفرّقة لابن اللبانة:

نُور ونَوْر فهذا بعد نعمته ذوى، وذاك خبا من بعد إيقادِ

يا أيها القمر المنير أهكذا يمحى ضياء النير الوقاد

أفقدت عيني مذ فقدت إنارة فمجالها في ظلمة وسواد

أفكر في عصر مضى لك مشرق فيرجع ضوء الصبح عندي مظلما

صباحهم كنا به نحمد السرى فلما عدمناهم سرينا على عمى

إن صورة الظلام تكاد تكتسحُ مشهد الصور في القصائد المعنية.

واللافت أن أهمية الصورة تكمُن في ما تُمهِّد باتجاهه وتوطِّئ. والمآل ليس غيرَ قيام القيامة بعد زوال مُلْك بني عبّاد. الظلام مجرد صورة من صور القيامة بمعنى آخر. والملاحظ أن لفظ القيامة ورد مرتيْن، لدى كل من ابن حمديس وابن اللبانة. فبالنسبة للأوَّل، جاء قوله:

ولما رحلتم بالندى في أكفكم   وقُلقل رضوى منكم وثبيرُ

رفعت لساني بالقيامة أن أتت   ألا فانظروا هذي الجبال تسيرُ

هكذا، ارتبط رحيل بني عباد بحلول القيامة. الحياة بعدهم لا قيمة لها، بالتركيز على خصلة الجود. لقد كان الرحيل بمثابة استحالة من حيث الحصول. ومادام هذا الأخير قد حدث، فعلاً، فليس يُعَبِّر عن ذلك غير حصول أمور غريبة في غاية الاستحالة هي الأخرى.. تقلقُل رضوى وثبير من جهة، وأكثر من ذلك مسير الجبال من جهة أخرى.
أما بالنسبة لابن اللبانة، فقد ورد لفظ القيامة في قصيدته.

تُرى نَرى بعدَ أنْ قامت قيامتُهم   مِن يَومِ بَعثٍ لهم فينا وميلادِ

وإن وردت القيامة في سياق التساؤل عن إمكانية البعْث، فإن الأبيات الموالية تؤكد مَناخ الحزن المُهوِل بصور مُتعدّدة. وأساس مُختلِف تلك الصور، الجنوحُ إلى اعتماد أَسلوب المبالغة.

والناسُ قدْ ملأوا العَبرينِ واعتبروا   من لؤلؤٍ طافياتٍ فوقَ أزبادِ

حطّ القناعُ فلم تستر مُخدَّرة   ومُزِّقت أوجهٌ تمزيقَ أبرادِ

كمْ سال في الماءِ من دمعٍ وكمْ حَملت   تلكَ القطائعُ من قطعاتِ أكبادِ

إلا أن صور القيامة لَشَدَّ ما تظهر في التائية، كما نستشفُّ من الأبيات التالية:

أنفضْ يَديْك منَ الدُّنيا وساكنِها فالأرضُ قدْ أقفرتْ والنّاسُ قد ماتوا

وقُلْ لعالمِها الأرضِّي قد كَتَمَتْ سريرةَ العالمِ العلوي أغماتُ

أما بالنسبة لابن عبد الصمد، فالحديث يصير بصدد «مسخ الزمان» بوصفه نتيجة عن حلول القيامة. ومن صور هذه الأخيرة، إطباق الظلام على كل شيء.. بالموازاة مع الجدب.

ودجا الزّمانُ وأقْحطَت أيّامُهُ فالجدبُ موجودٌ بكلِّ مُراد

ومن جهة أخرى، تشرف القيامة على الاقتراب من معنى الفراغ. ذلك، ما يمكن استشفافه من عدة استفهامات استنكارية، تكرّرت في سياق عدم وجود بديل للمعتمد، في: الشجاعة، الكرم، النباهة،.. ومن ثَمَّ، فبغياب المعتمد يُطبق الفراغ، مثلما يُطبق الظلام الدامس. ومما يُبيِّن ذلك، نختار الأبيات التالية:

منْ يفتحُ الأمصارَ بعدَ مُحمّدٍ؟ منْ يعقُد الراياتِ للقُوّادِ؟

من يَطعنُ النَّجلاءَ في المُرّاقِ أوْ من يضرب الأُخدودَ في المُرّادِ؟

منْ يتركُ الأسْطارَ في الأوراقِ مثـ لَ الحِلى في اللبَّاتِ والأجيادِ؟

من يفهمُ المعنى الخَفيّ، ومن لهُ صِدقُ الحديثِ وصحّةُ الإيرادِ؟

والحقيقة أنه بالرغم من قيام القيامة، لم يكن ذلك البصيص من الأمل في عودة حكم بني عباد لِيُفْتَقَد بالمرة. البصيص من الأمل ظَلّ يراود ابن اللبانة إلى حين.

مُؤيّدُ لِخْم هل تُؤمِّلُ عودةً فكمْ أملٌ أضْحى إلى النُّجحِ سُلَّما

وهو ذات الأمل الذي استدلَّ على قيامه ابن حمديس من خلال التصوير الفنِّي التّالي:

قدْ تَنتخي السّاداتُ بعد خمولِها وتخرجُ من بعدِ الكُسوفِ بُدورُ

ظل الأمل قائماً في حياة المعتمد، ولو أسيراً في أغمات. أما وقد غُيِّب الملك/ الشاعر، فالرجاء سرعان ما آل إلى كسوف. وبذلك، يكون الأمل قد تلاشى إلى غير رجعة.. حسب ما يحكيه ابن عبد الصمد:

كُنّا نؤمِّلُ أنْ نرى لكَ كَرَّة تعطي بها الأيّام كُلّ قِياد

فإذا المنايا قاطعاتٌ بالمُنى والدّهرُ لا يُردي سِوى الأجْوادِ

-13-

إذا تأملنا قصائد السجن، تبدَّت أمامنا مركزية المعتمد: ملكاً وشاعراً وإنساناً. ذلك ما تؤكده قصائد شعرائه.. والأكثر من ذلك، أبيات ابن الخطيب التي قالها بعد مرور عدة عصور. ويمكن القول إن ضياع الأندلسِ الأوَّل، كان بخلع المعتمد وفقدانه إلى الأبد في أغمات. لقد شَكَّل ذلك الخلع نهاية مرحلة أولى من تاريخ الأندلس. القصائد المنظومة في رثاء بني عباد، وبني الأفطس إلى جانبهم، لا توازيها فنية وحرارة إلا القصائد المنظومة في رثاء الأندلس في سقوطها النّهائيّ. التاريخ كان بالمِرصاد: سقوط الإمارات بات إيذانا بسقوط الأَمة الأندلسية ككُلّ. بيت الشاعر ابن الغسّال، كان مُرعباً بقوله

الحقيقة المُرَّة.. لنستعدْه رفقة بيتيْن آخريْن:

يا أهلَ أندلسٍ شُدّوا رحالكمُ فما المُقامُ بها إلاّ من الغَلَطِ
السِّلكُ يُنثرُ من أطرافهِ وأرى سلكَ الجزيرةِ منثوراً من الوَسَطِ
من جاورَ الشرَّ لا يأمنْ عواقبَهُ كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَطِ

كان بروز الشخصية الأندلسية قوياً، ما فتئ أن استحال جُرحاً غائراً. لم يكن يخفف من غلوائه، غير التوجه إلى الحُكّام الجدد من المرابطين باللوْم حيناً، والحِقد والاستهزاء حيناً آخر. تبدو رسالة الشَّقندي عنواناً بارزاً بهذا الخصوص. عدم الرَّدّ عليها خارج إطار الأدب، بات عنوان تسامُح من قِبَل حُكّام العُدْوة. وهل كانت الرسالة الشهيرة وحيدة في تعريضها بحُكّام المغرب؟ لنتأمل بيتي ابن اللبانة الآتيْين:

واعظتُ في آخرِ الصّحراءِ طائفةً لُغاتهم في كتابِ اللّهِ ملغاتُ
بمغربِ العُدوةِ القصوى دجا أَمَلي فهلْ لهُ بديارِ الشّرقِ مِشكاةُ

مما لا شك أن في البيتين قسوةً بحقّ المرابطين، نتيجة التعريض ببلادهم، وأكثر من ذلك التعريض بلغتهم. وأكثر منهما معاً، فالتعريض يحصل بالمغرب وليس بالأندلس.. أليس ينهض ذلك دليلاً، من بين أدلة أخرى، على تسامح المرابطين؟ الرياسة والحكم والشجاعة استوطنت بيت المعتمد، فما الذي استبقاه الشعراء للمرابطين من كلّ ذلك؟ حين صار الشعراء يفدون إلى المعتمد بأغمات، كان الأمل لا يفارقهم بعودة حكم بني عباد في أثناء ذلك. ألم يكن ذلك تجاوزاً من المرابطين، مع علمهم بما بات يجري على

ألسنة هؤلاء الشعراء؟ ومع كل ذلك، فبعض من قصيدة ابن عبد الصمد كان يُحلّق خفيفاً، بعد أن أدّى ما بذمَّته من وفاء للمعتمد.

لوْلا أميرُ المُسلمينَ وفضلُهُ — لمْ تَكتحلْ أجفانُكُمْ برُقادِ

واللّه يُبقيهِ لكمْ ليصونَكُم — مِنْ كلِّ حادثةٍ يخاف فُؤادي

ألْقى عليكم سِترهُ وأقالَكمْ — قدْ تُشفق الأمجادُ لِلأمْجادِ

قَصائِدُ السِّجْن: المَغْرِبِيّات

قَصائِدُ الْمُعْتَمِد

الأصْلُ تَتْبعهُ الفُروع

لَمّا تماسكتِ الدُّموعُ،   وتَنَبَّهَ القلبُ الصّديعُ،

وتناكَرَتْ هِمَمي لِما   يسْتامُها الخَطْبُ الفَظيعُ

قالوا: الْخضوعُ سياسةٌ،   فَلْيَبْدُ منكَ لهمْ خُضوعُ

وأَلَذُّ من طعْم الخُضوع   على فَمي، السُّمُّ النَقيعُ

إن يَسْلَبِ القومُ العِدى   مُلْكي، وتُسْلِمني الجُموعُ

فالقلْبُ بينَ ضلوعِه،   لم تُسْلمِ القلبَ الضُّلوعُ

لمْ أُسْتَلَبْ شرفَ الطِّبا   ع، أيُسلبُ الشَّرفُ الرَّفيعُ؟

قد رُمْتُ يومَ نِزالِهم   ألّا تُحَصِّنني الذروعُ

وبرزتُ ليس سوى القَميـ   ـص عن الحشى شيءٌ دفوعُ

وبَذَلْتُ نفسي كيْ تَسيـ   ـلَ إذا يسيلُ بها النَّجيعُ

أَجَلي تَأَخَّرَ، لم يكُن   بِهَوايَ ذُلّيَ والْخُشوعُ

ما سِرْتُ قَطُّ إلى القِتا   لِ وكان منْ أَمَلي الرُّجوعُ

شِيَمُ الْأُلى أنا مِنْهُم،   والأصلُ تتبعهُ الفُروعُ

جِبالُ دَرَن

هَــذي جِــبـــــــــالُ دَرَن، قـــلْبـــي بِـــهــــــا ذو دَرَنِ
يـــا ليــتْــنـــي لــمْ أَرَهـــــــا، وليْـــتها لــــمْ تَرَنــــــــي!
كأنَّــهـــا تُخبِرُنـــــــــــــــــي بأنَّـــهـــا تُقبِرُنـــــــــــي

الدُّنْيا الدَّنيَّة

أرى الدُّنيا الـــدَّنِيَّةَ لا تــُواتــــــي، فَأَجمِل في التَّصَرُّفِ والطِّــلاب !
ولا يغرُرْكَ منْها حُــسْـــنُ بُـــرْد لَهُ عَلَمانِ من ذَهَبِ الذَّهـــاب
فأوَّلُها رجـــاءٌ مِـــن ســـراب، وآخـــرُهـــا رِداءٌ مِن تُـــــراب

في الصُّرَّة شِعْر

قُــلْ لِمَــنْ جَمَــعَ العِلـــــــم ومـــــا أحْصـــى صَوابَـــهْ:
كانَ فــي الصُّــرَّةِ شِعْـــــرٌ فَتَنَظّـرْنـــا جـوَّاَبَــــــــــه
قَــدْ أَثَبْنــاكَ فَهَـــــــــلّا جلــبَ الشِّــعرُ ثَوابَـــــهْ؟!

شُعراءُ طَنْجَة

شُعراءُ طَنْجَةَ كُلُّهُمْ والمَغْــــــرِبِ، ذَهَبوا من الإغْرابِ أبْعدَ مَـــذْهَبِ !

سَألوا الْعسيرَ منَ الأَسيرِ، وإِنَّــــــهُ بِسؤالِهِمْ لَأَحَقُّ مِنْهُمْ فاعـــْجَــبِ!

لـوْلا الحياءُ وعِـزَّةٌ لَخْمِيَّـــــــــــةٌ طَيَّ الْحَشا، لَحَكاهُـمُ في المَـطْلَبِ

قدْ كانَ إنْ سُئِلَ النَّدى يُجْــــــزِلْ وإنْ نـادى الصَّريخُ بِبابِـهِ: ارْكـبْ.. يَرْكَـبِ

قُبِّحَ الدّهر

قُبِّح الدهر فمـاذا صنــــــــعا؟ كُلَّمـا أعْطـى نَفيسـا نَزَعــــــــا

قـدْ هَـوى ظُلْمـا بِمَـن عاداتُــــــه أن يُنـادي كلَّ مـنْ يهْـوى «لَعَـا»!

مَـنْ ذا إذا قيـلَ الْخَنـا، صَـمْ، وإن نَطَـقَ العافـونَ هَمْسـاً، سَمِعـــــا

مَـنْ إذا الغيْـثُ هَمَـى مُنْهَمِــــراً، أخْجَلَتْـهُ كَفُّــهُ فانْقطـــــــــعا!

مَـنْ غَمـامُ الجُـودِ مِـنْ راحتــِــه عَصَفَـتْ ريحٌ بِـهِ فانْقشــــــــعا

قُـلْ لِمَـن يَطمـعْ فـي نائِلِــــــه: قــد أزالَ اليـأسُ ذاك الطِّمـــعا!

راحَ لا يملــكُ إلاّ دعـــــــــوةً، جَبَـرَ اللـهُ العُفـاةَ الضُّيَّــــــعا!

في دمْعكَ مَقنع

خرجُوا لِيَسْتَسْقوا فقلتُ لهـــــم: «دمْعي ينوبُ لكمْ عنِ الأنواءِ»
قالوا: حقيقٌ !.. في دَمعِك مَقْنعٌ، لَكِنَّها ممْزوجةٌ بِدِمـــــــــاءِ

أبى الدهر

أَبَى الدّهرُ أن يَقْنى الحياء ويندما، وأن يمْحوَ الذّنبَ الَّذي كانَ قدما
وأن يتلقَّى وجهَ عَتْبيَ وجهُـــــه بِعُذر يُغْشي صَفحتيْه التَّذَمُّـــما
ستعلمُ بعْدي مَنْ تكونُ سُيوفُـــه إلى كُلِّ صَعْبٍ من مراقيكَ سُلَّما!
سترجعُ إنْ حاولتَ دونيَ فَتْكَـــةً بأخجلَ من المُبارِز أحْجَـــــما

شَغَلَتْني الأشْجان

كنتُ حَلِفَ النّدى وربَّ السَّمــــاحِ   وحبيـــبَ النُّفـــــوسِ والأرواحِ!

إِذْ يميني للبـذْلِ يومَ الْعطـــــايا،   ولقبْـض الأرواحِ يـومَ الكـــِفاحِ

وشِـمالي لقبْـض كُلِّ عِنـــــان   يُقحِم الخيْـل في مَجال الرِّمـاحِ

وأنـا اليـومَ رَهْـنُ أسْـر وفقـــْــر،   مستباحُ الحِمـى، مَهيـضُ الجَنـاحِ

لا أجيـبُ الصَّريـخَ إنْ حضـر النـَّـا   سُ، ولا المُعتفيـنَ يـوْمَ السَّمــاحِ!

عـادَ بُشرى الـذي عهدتَ عُبـوسا،   شَـغَلَتْني الأشْـجانُ عـن أفْراحـــي

فالْتِماحـي إلـى العُيـون كَريــــهٌ،   ولقــدْ كانَ نُزهــةَ اللَّمـــــــاحِ !

أما يخْجلُ المجد؟

هُمْ أوْقـدوا بيـن جَنبيْـكَ نــــــارا   أطالُـوا بِهـا فـي حَشـاكَ اسْتِعـــارا

أمـا يخجـلُ المجـدُ أن يُرحِــــلو   كَ ولـم يُصحبوكَ خِبـاءً مُعـــارا؟

فقـد قنَّعـوا المجـدَ إنْ كـــانَ ذا   ك- وحاشـاهم- منـكَ خِزْيـاً وعـاراً

يقــلُّ لعيْنيــكَ أن يجْعلـــــــوا   سـوادَ العْيـن عليكُـم شعـــــارا!

تُراهـم نَسَـوا حيـن جُـزْتَ القـــفا   رَ حَنينـاً إليهـم وخُضـتَ البِحـارا!

بعَهْـد لُـزوم لسُبـُـل الوفــــــا   إذا حَـادَ عنْهـا وجَـــــــــارا

وقلْبـي نَـزوعٌ إلـى يــــــوسفٍ   فلـولا الضلـوعُ عليْـه لطــــــارا

ويــوْم العروبــةِ ذدتَ العــِــــدى   نصـرتَ الهُـدى وأبيْـت الفِــــرارا

تَثَبَّــت هنــاكَ وأن القلـــــــو   بَ بيْـنَ الضُّلـوعِ لتأْبـى الفِـــرارا

ولـولاك يـا يوسـفُ المتَّقـــــى،   رأيْنـا الجزيـرةَ للكفْـــــــر دارا!

يَقولُون صبْرا

يقولونَ صبْرا لا سبيلَ إلى الصَّـبرِ! سأبْكي وأبْكي ما تطاولَ من عُمْري!
نَرىُ زهْرها في مأتمِ كلَّ ليلــة، يُخَمِّشْن لَهْفا وْسطَهُ صَفْحةَ الــبَـدْرِ
ينُحْنَ على نَجميْن أثْكِلـْن ذا وذا، ويا صبرُ ما للقلْبِ في الصّبر منْ عُذْرِ!
مدى الدّهر، فَلْيَبْكِ الغمامُ مُصـابَهُ بصِنْوَيْه يُعْذر في البُكاء مدَى الدّهْـر!
بِعَيْن سحابِ واكِفٍ قَطر دمعِـها على كُل قَبرٍ حلَّ فيه أخو القَطْر
وبرقٍ ذكيّ النارِ حتّـى كأنَّما يُسعَّرُ مما في فؤادي من الجَمـْر
هَوَى الكوْكَبانِ: الفتحُ ثُمَّ شقيقُـهُ يزيدُ فهلْ بعدَ الكواكبِ من صَبْـر؟
أفتْحُ ! لقد فتَّحْتَ لي بابَ رحمـةٍ كما بيزيد، اللهُ قد زادَ في أجْـري!
هوى بكُما المقدارُ عنّي ولـم أمتْ وأُدْعى وَفِيّاً قد نكصتُ إلى الغـدْرِ!
تولّيْتُما والسِّنّ بعدُ صغـيرةٌ، ولم تلْبثِ الأيّام أن صَغَّرتْ قـَدْري
تولّيْتُما حينَ انتهتْ بِكُما الـعُلى إلى غايةٍ، كلٌّ إلى غايةٍ يجْـري
فلوْ عُدتُما لاخْتَرْتُما العوْد في الثَّرى إذا أنتُما أبصرْتُماني في الأسـْرِ
يُعيدُ على سمْعي الحديدُ نشيــدَه ثقيلاً، فتبْكي العَيْنُ بالجِسّ والنّقـْر
معــي الأخـواتُ الهالـكاتُ عليــكُما وأمّكُما الثّكلى المُضَرَّمةُ الصـَّدْرِ
تُذَلّلهــا الذِكــرى فتفــزَعُ للبُــــكا وتصبرُـ في الأحْيانـ شُحّاً على الأجْر
فتبكي بدمْع ليس للقَطْر مِثلـــُه، وتزجُرُها التَّقْوى فتُصغي إلى الزَّجر
أبــا خالـدٍ أوْرثْتَنــي البَــثَّ خـــــالدا، أبا النَّصرِ مُذْ وُدِّعتَ وَدَّعَني نَصْري!
وقَبلكُمــا مــا أوْدَعَ القلــبَ حســــرةٌ تُجدّدُ طول الدهر ثكلُ أبي عمرو

أم القلب صخرة؟

بكتْ أن رأت إلفيْنِ ضَمَّهُما وكْـــــرُ   مساءً، وقد أخْنى على إلفِها الدَّهـــرُ
بكتْ ولم تُرِقْ دمعا وأسْبلتْ عَـــبرة   يقصُرُ عنها القَطْر مهْما هَمَا القطْـــرُ
وناحتْ فباحتْ واستراحتْ بسرِّها،   وما نطقتْ حَرفا يبوح به سِـــــرُّ
فمالي لا أبكي أمِ القلبُ صخـرة؟   وكم صخرةٍ في الأرض يجْري بها نهرُ؟
بكتْ واحدا لم يُشْجِها غيرُ فَقــْده،   وأبكي لألافٍ عديدهُمُ كُثــْــــرُ !
بُنَيٌ صغيرٌ، أو خليل مُوافـــــِق،   يُمزِّقُ ذا قفْرٌ، ويُغْرِقُ ذا بحْـــــرُ
ونجْمان ذا زَيْـنٌ للزَّمان احتواهما   بقرطبةَ للنَّكداء أو رُنْدَةَ القبـْــــــرُ!
عُذرتُ إذاً إن ضَنَّ جفني بقطــرةٍ   وإن لؤُمَت نفسي فصاحِبُها الصَّبــرُ
فقُلْ للنُّجوم الزُّهْر تَبكيهما معــي،   لمِثلهِما فلتحزنِ الأنْجمُ الزُّهْـــرُ!

أبْكي لحُزني

يا غيمُ عينيَ أقْوى منك تَهتانــــا　　أبكـي لحُزنـي وما حُملْتُ أحزانــا

ونـارُ برقِـكَ تخْبـو إثـرَ وقْدتِهــــــا،　　ونـار قلبـي تبقـى الدهـرَ بُركانــــــا

نـارٌ ومـاءٌ صميـمُ القلـب أصلُهمــا،　　متـى حـوى القلبُ نيراناً وطُوفانــاً؟

ضِـدّان ألّـفَ صـرْفُ الدّهـر بيْنهمـا،　　لقـد تلـوَّنَ فـي الدَّهـر ألوانــــــــا

بكيـتُ فَتْحـاً فـإذ رُمـتُ سَلوتـــــهُ　　ثـوى يزيـدُ فـزاد القلـبَ نيرانــــــا

يا فلذتـيْ كبـدي ! يأبـى تقطّعهــــا　　مِـن وَجْدهـا بكما ما عشـتُ سُلوانـا!

لقـد هـوى بكُمـا نجْمـان مـا رَمَيَــــا　　إلا مـن العُلْـو بِالألحـاظِ كِيوانـــــا

مُخفَّـفٌ عـن فـؤادي أن ثَكِلْتمـــــا　　مُثَقَّـلٌ لـيَ يـوم الحشْـر مِيزانــــــا

يا فتـحُ قد فتحتْ تلك الشـهادةُ لــي　　بـاب الطِّماعـة فـي لُقياك جذْلانــا!

ويـا زيـدُ لقـد زاد الرَّجا بكُمـــــا　　أن يشـفعَ اللـهُ بالإحسـانِ إحسانــا!

لمـا شـفعتَ أخـاك الفتـحَ تتبعـُـــهُ،　　لقاكُمـا اللـهُ غُفرانـا ورَضوانــــــا

مِنّــي السـلامُ ومـن أمٍّ مُفَجَّعـــــــة　　عليكُمـا، أبـدا مثْنـى ووِحدانــــــا

أبكـي وتبكـي غيرنـا أسفـــــــــاً　　لـدى التذكُّـر، نسـواناً ووُلدانــــــا

في أغمات مأسورا

فيما مضى كُنتَ بالأعيادِ مسْروراً　　فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورا

ترى بناتِك في الأطْمار جائعةٌ　　يغزِلن للنَّاس، ما يمْلكنَ قِطميرا

برزْن نحوَك للتَّسليم، خاشعةٌ　　أبصارُهن، حسيراتٍ مكاسيرا

يطأن في الطِّينِ والأقدامُ حافيةٌ　　كأنَّها لم تطأ مِسكاً وكافورا

لا خدَّ إلا تشَّكى الجدبَ ظاهرُهُ　　وليْس إلاّ مع الأنْفاسِ ممْطورا

أفطرتَ في العيدِ، لا عادتْ إساءتُهُ،　　فكان فِطرُكَ للأكْباد تَفْطيرا!

قد كان دهْرُك إن تأمرْهُ مُمتثِلاً　　فرَدَّكَ الدَّهر مَنْهِيّاً ومأمورا

من باتَ بعدَك في مُلكٍ يُسَرُّ بهِ،　　فإنَّما باتَ بالأحْلام مغْرورا

يعُّض بِساقي

تبدلتُ من عزِّ ظلّ البُنود،　　بذُلّ الحديدِ وثِقل القُيود

وكان حديدي سِناناً ذلِقاً،　　وعضْباً دقيقاً صقيلَ الحديد

فقد صار ذاك وذا أدْهَما،　　يعُضُّ بساقِي عَضَّ الأُسود

غريبٌ بأرضِ المغربيْن

غريبٌ بأرض المغربيْنِ أسِيـــــــرُ سيبْكي عليهِ مِنْبرٌ وسريـــــــــرُ
وتندُبُهُ البِيضُ الصَّوارمُ والقَنـــــا، وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غزيـــــــــرُ
سيبْكيهِ في زاهيه والزاهر النّـَدى، وطُلابُهُ والعَرف ثم نَكيـــــــرُ
إذا قِيل في أغماتَ قد ماتَ جــودُهُ، فما يُرْتجى للْجود بعدُ نُشـــــور.
مضى زمنٌ والملْكُ مُستأنِسٌ بـِــهِ، وأصبحَ منهُ اليومَ وهْو نَفـــورُ
بِرأيٍ من الدَّهر المُضلل فاســـــدٍ متى صَلُحت للصّالحينَ دُهــورُ؟!
أَذَلَّ بني السماءِ زمانُـــــــهمْ، وذُلُّ بني ماء السماءِ كبيـــــرُ؟
فما ماؤُها إلا بكاءً عليـــــــــهم يفيضُ على الأكبادِ منهُ بُحـــورُ
مضى زمن والمُلْكُ مُستأنسٌ بـِــهِ وأصْبحَ منهُ اليوْمَ وهْو نَفـــورُ
فيا ليْت شِعري هل أبيتنَّ ليلـــــةً أمامي وخلْفي روضةٌ وغديـــرُ؟!
بمنبتَة الزّيتونِ مُورثة العُلـــــى، يُغَنّي حمامٌ أو تَرِنُّ طيـــــورُ
بزاهرِها السّامي الذُّرى جادَهُ الْحَـيا تشيرُ الثريّا نحْونا ونُشيـــــرُ
ويلحظُنا الزّاهي وسعْد سعـــــوده غَيوريْن، والصَّبُّ المُحِبُّ غَيــورُ
تُراهُ عَسيراً أو يسيراً منالُـــــهُ، ألا كلُّ ما شاءَ الإلهُ يسيـــــرُ
قضى اللهُ في حمصَ الحِمام وبُعثِرت هنالكَ مِنّا للنُّشورِ قُبـــــورُ

أنتَ ابنُ حَمْديس

حُجِبتَ فلا واللهِ، ماذاكَ عن أمْــري، فاصْغ فَدَتْكَ النَّفس سمْعا إلى عُذري

فما صار إخلالُ المكارمِ لي هــوى، ولا دارَ إخجالٌ لمثلكَ في صــدْري

ولكنَّه لَمّا أحالت مَحاسِنـــــي يدُ الدَّهر، شُلَّت عنكَ دأْبا يَدُ الدَّهــرِ!

عُدمتُ من الخدّامِ كلّ مُهــذَّب أشيرُ إليه بالخَفِيّ من الأمْــرِ

ولم يبْقَ إلاّ كل أدكنَ ألكـــنٍ فلا آذنٌ في الإذن يبرأُ من عَــرّ

حمارٌ إذا يمْشي، ونَسْرٌ مُحلـــِّق إذا طارَ، بُعداً للحميرِ وللنَّسْــرِ!

وليْس بمحتاجٍ أَتانا حمارُهــُـم، ولا نِسرُهم مما يحنُّ إلى وكْــرِ

وهل كنتَ إلا الباردَ العذبَ إنمـــا لا به يشتفي الظمآنُ من غُلّة الصدر؟!

ولو كنتُ ممّن يشرب الخمْرَ كنتها إذا نزعَت نفسي إلى لذّة الخمــرِ

وأنتَ ابن حمديسَ الذي كنتَ مُهْدياً لنا السِّحرَ إن لم نأتِ في زمنِ السِّحـرِ

إليكَ النَّزر من كفِّ الأسير

إليك النزْر من كـفِّ الأسيــــر	فإن تقنعْ تكنْ عينَ الشَّكـــُورِ!
تقبلْ ما يـذوبُ له حيـــــاءً	وإن عذَرَتْه أحـوالُ الفقـــــيرِ
ولا تعجبْ لخطبٍ غـضّ منـــهُ	ألَيْس الخَسفُ ملتزمَ البـــُدورِ؟!
ورَجَّ بجَبْره عُقْبى نـــــدَاه	فكم جبرَتْ يداهُ من كسِيـــرِ؟!
وكَـم أعْلت عُـلاهُ من حضيض؟!	وكم حطّت ظُباه من أمِيـــرِ؟!
وكـم أحْـظى رضـاهُ مـن حـظّيٍّ؟!	وكـم شهرتْ عُـلاه من شهِيـرِ؟!
وكـم من مِنبر حنَّت إليـــــهِ	أعالي مُرتقاهُ، ومِـن سريـــرِ؟!
زمـانٌ تنافستْ في الحظِّ منْــهُ	ملوكٌ قد تجورُ على الدُّهـــورِ
زمـان تراجعت عـن جانبيـــهْ	جيادُ الخيلِ بالموتِ المُبـــيرِ
بحيث يطيرُ بالأبطالِ ذُعْـــر،	ويُلفى ثم أرجَـحُ من ثبِـــيرِ
فقد نـظرَتْ إليه عيونُ نـــحسٍ	مضتْ منه بمَعدومِ النَّظـــير
نُحوسٌ كـنَّ في عُقبى سُعـــودٍ	كـذاك تـدورُ أقـدارُ القَديـــــرِ

رَدّ بِرّي بغْيا

رَدَّ بِرّي بَغْياً عليَّ وبـــِـــــــرّاً وجَفا فاسْتحقَّ لوْماً وشُكـــــــــرا!

حاط نَزْري إذ خاف تأكيدَ ضرّي، فاسْتحقَّ الجفاءَ أن حــــــاط نَزْرا

فإذا ما طوَيتُ في البعْض حَمـــدا عادَ لوْمي في البعض سِرّاً وجَهْـــراً

يا أبا بَكر الغريب وفـــــــــاءً لا عدمْناك في المغارِبِ ذُخـــــرا!

أيُّ نَفع يُجدي احتياطُ شفيـــــق مُتّ ضُرّاً فكيف أرهَب ضـَــــرّا؟

دعا لي بالبقاء

دعا لي بالبقاءِ وكيف يهْــــوى | أسيرٌ أن يطُولَ به البقــــــاءُ؟
ألَيْس الموتُ أروحَ من حيــــاةٍ | يطولُ على الشَّقيّ بها الشّقــاءُ؟
فمن يَكُ من هَواهُ لقـــاءُ حِـــبّ، | فإنّ هَوايَ من حَتْفي اللِّقـــاءُ!
أأرغبُ أن أعيشَ أرى بنــــاتي | عَواريَ قد أضرَّ بها الحفـــاءُ؟!
خوادِمَ بنت من قدْ كان أعـــلى | مراتبه- إذا أبدو- النـــِّـداءُ؟!
وطرْدُ الناس بيْن يدي مَمَـــرِّي، | وكفّهم إذا غصَّ الفِنــــــاءُ
وركضٌ عن يمينٍ أو شِمـــال، | لنظْم الجيشِ إن رُفِع اللِّـــواءُ
يُعَنِّيهِ أمـــــــامٌ أو وراء، | إذا اختلَّ الأمامُ أوِ الـــــوراءُ
ولكنَّ الدعاءَ إذا دعـــــاهُ | ضميرٌ خالصٌ نَفَعَ الدُّعـــاءُ
جُزيتَ أبا العلاء جزاء بَـــرٍّ | نوى بِرّا وصاحبَكَ العـــلاءُ !
سيُسْلي النفسَ عمّن فاتَ، عِلمي | بأن الكلَّ يُدركهُ الفنــــاءُ

كلامُك حُرّ

كلامُك حرٌّ والكلامُ غـُـــــلام، وسِـحـرٌ ولكنْ ليْسَ فيه حَـرامُ!

ودُرٌّ ولكنْ بينَ جَنبيْكَ بحـــره، وزهْـر ولكنّ الفؤاد كِمــــــامُ

وبـعـدُ، فـإنْ ودَّعْـتـنـي بخَداعــةٍ فحقِّي أن يَجْني عليهِ السَّــلامُ

أَعِنّي على نفسي بتزوِيد أسْهلي، بلى وقـولُ لا شـيء عليَّ حـرامُ

فدُونَكهُ إذْ لم أجدْ لي حيلــــةً، وقلبيَ فاعلمْ في الطعام طعــامُ

فهُنِّئتُه زادا وفـي الصَّدر رَقْـدة، وللصَّبرِ من دون الـفُـؤادِ غَـرَامُ

لقد كان فألٌ من سمائِك مؤْنـس، فقد عـاد ضِـدّاً والـعـراءُ رِمــــامُ

تحليتَ بالدّاني وأنت مُباعـــــد، فيا طيبَ بـدْءٍ لو تلاهُ تَمـــــامُ!

ويا عجبا حتّى السماتُ تخونُني، وحتَّى انتباهي للصّديقِ مَنــامُ

أضاءَ لنا أغماتَ قربُك بُرهـــــة، وعـادَ بها حين ارتحلتَ ظَـــلامُ

تسيرُ إلى أرض بها كنتَ مُضغة، وفيها اكتستْ باللحمِ منك عِظامُ

وأبْقى أُسامُ الذلَّ في أرضِ غربةٍ، وما كنتُ لولا الغدرُ ذاكَ أُســامُ

فبُلغتُها في ظِلّ أمنٍ وغبطـــــةٍ وسُنِّيَ لي ممّا يعوقُ ســـلامُ !

كذا يهلكُ السَّيف

كذا يهْلكُ السّيفُ في جفْنِـــهِ إذا هزَّ كفّ طويلُ الحنـــينِ !
كذَا يعطشُ الرّمحُ لم أعتقلْـهُ ولم تـروِه من نجيع يميــــني!
كذا يمنعُ الطّرف علَّك الشكيـــــمَ مُرتقِياً غِرَّة في كمــــينِ!
كأنّ الفوارسَ فيه لُيــــوثٌ تراعي فرائسَها في عرِيـــنِ
ألا شـرفٌ يَـرحـمُ المُشرفـــــــيَّ ممّا بهِ من شماتِ الوتـــينِ !؟
ألا كَـرَمٌ يُنعشُ السمْهـــــريّ ويُشفيهِ من كُلّ داءٍ دفيـــنِ !؟
ألا حَنَّةٌ لابْن مَحنــــــــيَّة شديدَ الحنين ضعيفَ الأنيـنِ !؟
يُـؤمِّل من صدرها ضمّـــــةً تبوئُه صـدرَ كُـفْءٍ معـــــينِ

بُنيَّتــي

بُنيَّتــي كــوني بــه بــــــــــرَّة   فقــدْ قضــى الدَّهــرُ بإِسْعافـــهْ !

لك الحـمْد

لـك الحمـدُ مِـن بعـدِ السُّـيوف كُبول   بسـاقيّ منهـا فـي السُّـجونِ حُجُـولُ
وكنَّــا إذا حانــت لحــربٍ فريضــةٌ،   ونـادت بأوقـاتِ الصّـلاة طُبــــولُ
شــهِدنا فكبَّرنــا فضلَّــت سيوفُنـــا   تُصَلّـي بهـام العِـدى فتُطِـــــيلُ
ســجودٌ علــى إِثْــر الرُّكــوع مُتَابَـع   هنـاك بـأرواح الكُمـاة تســــيلُ

أنباء أسرك

أنبـاء أسـرِك قد طبَّقـن آفاقــــــــاً   بـل قد عَمَّمـن جِهـاتِ الأرضِ إقلاقا!

سـارت مـن الغربِ لا تُطـوى لها قدَم   حتّـى أتـتْ شـرقَها تنْعاك إشْراقـــــا

فأحـرق الفجـعُ أكبـاداً وأفــــــئدةً   وأغـرق الدمـعُ آماقـاً وأحداقــــــا

قـدْ ضـاقَ صـدرُ المعالـي إذ نُعِيتَ لها   وقيـلَ: إن عليكَ القيدَ قد ضـــــاقـا

أنَّـى غُلبتَ وكنتَ الدَّهر ذا غــــلبٍ   للغالبيـن وللسِّـباق سبَّاقـــــــا؟

قلـت: الخطـوبُ أذلّتْنـي طوارِقُــها،   وكان عزْمِـيَ للأعـداءِ طَراَّقــــــا

متـى رأيـتَ صـروفَ الدَّهر تاركـــةً   إذا انبـرتْ لذوي الأخطارِ أرْماقـا؟!

قيْـدي

قيْـدي ! أمـا تعلمُنـي مُسْلمـــــاً ؟ أبيْـتَ أن تُشـفق أو ترْحـــمــــاً !

دمـي شـرابٌ لـك واللحـمُ قـــــدْ أكلتَـهُ، لا تُهشِّـمِ الأعْظُمـــــــا !

يبصرُنــي فيـك أبـو هاشـــــمٍ، فينثنـي والقلـبُ قـد هُشِّمـــــاً !

اِرحـم طُفَيْـلاً طائشـاً لُبُّــــــهُ، لـم يخـشَ أن يأتيـكَ مُسترْحِمـــا

وارحـمْ أُخيَّـاتٍ لـه مثلَـــــــه جرعتهـنَّ السُّـمَّ والعلقمـــــــا !

مِنهـنّ مـن يفهـم شـيئاً فقـــــدْ خِفنـا عليـهِ للبُكـــا العمــــــى

والغيــرُ لا يفهــمُ شـيئاً فمــــــا يفتــحُ إلّا للرضــاعِ فمـــــــــا

تَعطَّف في ساقي

تَعطّفَ فـي سـاقِي تعطّـفَ أرقــمِ، يُســاورُها عَضّــا بأنيــابِ ضيْغــمِ
إليـكَ، فلـوْ كانـتْ قيـودُكَ أسْـعرَت تَضَــرَّم منهـا كلُّ كـفٍّ ومِعصـــمِ
مخافَــةَ مــن كان الرجــال بسبْيِـــهِ ومِــن سـيْفُه فـي جنّـة أو جهنــمِ!

أغماتيَّةُ الألْحان

غنَّتـك أغماتيـةُ الألحــــــانِ، ثَقُلَت على الأرواح والأبْـــــدانِ
قد كان كالثُّعبان رمحُك في الوغــى فغـدا عليكَ القيْدُ كالثُّعبــــــانِ
مُتعـدِّداً يحمِيـكَ كُل تعــــــدُّد، مُتَعَطِّفاً لا رحمـةَ للعــــــــاني
قلْبـي إلى الرَّحمانِ يشكو بثَّـــه، ما خابَ منْ يشكو إلى الرَّحمــانِ!
يا سـائلاً عن شـأنِه ومكانِـــــه، مـا كان أغْنـى شـأنَه عـن شــانـــي!
مـن بعـدِ كلِّ عزيـزة رومِيــــــةٍ تحكي الحمائمَ في ذُرى الأغصـانِ

تُؤمِّل فرْحة

تؤمِّل للنَّفس الشَّجيةِ فَرْحـةً وتأبى الخطوبُ السُّودُ إلاّ تماديا
لياليكَ في زاهيكَ أصْفى صَحْبَتَها، كما صَحبَت قبلِي الملوكُ اللَّياليا
نعيمٌ وبؤسٌ ذا لذلكَ ناسِخٌ وبعدهُما نسْخُ المنايا الأمانِيا

أما لانْسكابِ الدّمع

أما لِانسكاب الدَّمع في الخدِّ راحةٌ؟ لقدْ آن أنْ يَفنى ويَفنى بهِ الخَدُّ!
هَبُوا دعوةً يا آل فاسٍ لمُبْتَلٍ، بما منهُ قدْ عافاكُمُ الصّمَدُ الفرْدُ!
تخلَّصْتم من سجن «أغماتَ» والْتَوَت عليَّ قُيودٌ لم يحِن فكّها بعدُ
من الدُّهم، أمَّا خِلقُها فأساوِدٌ تَلَوَّى، وأمّا الأيْدُ والبطشُ فالأسْدُ!
فهنِّئتُم النُّعمى ودامت لِكُلّكُم سعادَتُه، إن كان قد خانني سعْدُ
خرجتُم جماعاتٍ وخُلِّفتُ واحدا، ولله في أمري وأمركم الحمْدُ!

رهن أدهم مبهم

قضى وطَرا من أهلِهِ كلُّ نازح، وكَرّ يُداوي عِلَّة في الجوارِحِ
سِوَايَ، فإنّي رهْنُ أدهمَ مُبهمِ سبيلَ نجاتي آخذٍ بالمُبارِحِ

سرْب الْقطا

بكيْتُ إلى سِربِ القَطا إذ مَرزْن بي سَوارحَ لا سجنٌ يَعوق ولا كبْلُ
ولم تكُ، والله المعيدُ، حسادةً ولكِن حنيناً: إن شَكلي لها شكْلُ!
فاسَرحْ، فلا شمْلي صديعٌ ولا الحشا وجميع، ولا عيْنايَ يُبْكِيهما ثُكلُ
هنيئا لها أن لمْ يُفَرَّق جميعُها ولا ذاق منها البعدَ عن أهْلها أهلُ!
وأن لم تَبِتْ- مثْلي- تطيرُ قلوبُها إذا اهتزَّ بابُ السِّجن أو صَلْصَلَ القُفلُ
وما ذاكَ مِمَّا يعترِيني وإنَّما وَصَفْتُ الذي في جِبْلة الخلقِ من قبلُ
لنفْسي إلى لُقيا الحِمام تشوُّفٌ، سِوايَ يحبُّ العيشَ في ساقهِ كبْلُ
ألا عصَمَ الله القطا في فراخِها، فإن فراخِي، خانَها الماءُ والظِّلُ!

غربانَ أغْمات

غربانَ «أغماتَ» لا تَعْدَمَن طيِّبــةً   منَ اللَّيالي وأفْنانا من الشَّجـــرِ!

تظلُّ زغبَ فراخ تستكِنُّ بهـــــا   من الحَرور، وتكفيها أذَى المــطرِ

كما نعِبْتُنَّ بالفأل يُعجبـــــــني   مُخَبِّراتٍ به عن أطْيَب الخـــبرِ

أن النجوم التي غابت، قدِ اقتربــت   منا مطالعُها تسْري إلى القـــمر

عليَّ إن صدَّق الرَّحمان ما زعمــت   ألّا يروِّعنّ من قوْسي ولا وتــري!

والله، والله لا نفَّرتُ واقِعــــها   ولا تطيَّرَت الغربانُ بالعــــوَرِ

ويا عقاربَها لا تعْدمي أبَــــداً   شجًّا وعَقْرا، ولا نوْعاً من الضَّررِ !

كما ملأتُنَّ قلْبي مذ حللتُ بـــها،   مخافةً أسلمتُ عيْنِي إلى السَّــهرِ

ماذا رمتْكَ به الأيامُ يا كبِـــــدي   من نُبْلِهنَّ ولا رامَ سوى القـــدَرِ!

أسْر وعُسْر ولا يُسْرٌ أؤمـــلهُ،   أستغْفرُ اللهَ ! كمْ لله من نَظَـــرِ؟

يا سائلَ الشِّعر

لوْ أستطيعُ على التَّزويدِ بالذهــبِ   فعلتُ، لكن عداني طارقُ النــوبِ!
يا سائلَ الشِّعر يجْتاب الفلاةَ بــهِ!   تزويدُكَ الشعرَ لا يُغني عن السَّــغَبِ!
زادٌ من الرِّيحِ لا ريّ ولا شِبَـــعٌ   غدا له مُوثِـــــراً ذو اللُّبِّ والأدبِ
أصبحتُ صِفْراً يدي مِمَّا تجود بـهِ،   ما أعجبَ الحادثَ المقدُورَ في رَجَب!
ذُلٌّ وفقرٌ أزالاً عزَّة وغِنــــى   نُعمى الليالي من البلْوى علــى كَثَبِ
قد كان يستلبُ الجبّارَ مُهْجتَـــهُ   بطشي، ويحْيا قتيلُ الفقرِ في طلبــي!
والمُلْكُ يحْرُسُهُ في ظلِّ واهِــبـهِ   غُلْب من العُجْم أو شُمٌّ مِنَ العــرَبِ
فحين شاء الذي أتاهُ ينزَعُــــهُ،   لم يجدْ شيْئاً، فَرَاعَ السمر والقُضُــبِ
فها كِها قِطْعةً يطْوِي لها حسَــداً،   السَّيفُ أصدق أنْباءً من الكُتُـــب

أينَ جاهُنا؟

قالــتْ: لقــد هُنّــا هُنــــا   مــولايَ، أيــــن جاهُنــــا؟
قلــتُ لهـــا: إلــى هنـــا،   صيَّـــرَنا إلهُــــنـــــا!

يَد الخُطوب

سلّت عليَّ يدُ الخطوبِ سيوفَهــا، فَجَذَذْنَ من جَلَدي الخطيفَ الأمْتَنَا
ضَرَبَت بها أيدي الخُطُوب وإنَّمـا ضربت رِقابَ الآمِلين بها المُنـى!
يا آملي العاداتِ من نَفحاتِنــــــا كُفُّوا ! فإنَّ الدَّهرَ كَفَّ أكُفَّنــــــا!

اِقنعْ بِحظّك

اقنعْ بحظّكَ في دنياكَ ما كــــانَ! وعزِّ نفسَكَ إنْ فارقتَ أوْطـــانـا
في اللهِ منْ كُلِّ مفقودٍ مضى عِــوَضٌ، فأشْعر القلبَ سلْوانا وإيمـــــانا!
أكلما سَنَحَتْ ذكرى طَرِبْتَ لهــــا مجَّت دُمُوعك في خدَّيكَ طوفــانا؟
أما سمِعْتَ بسُلطان شبِيهكَ قــــدْ بزَّتْهُ سودُ خطوبِ الدَّهرِ سُلطانـا؟
وطِّنْ على الكُرْهِ وارقُبْ إثْرَهُ فَرَجـا! واسْتغْفِرِ اللهَ تغنمْ منهُ غُفــرانـا!

قبْـر الْغَريـب

قبرَ الغريب سقاك الرائحُ الْغـادي! حقّاً ظَفُرتَ بأشلاء ابنِ عبـــّاد!

بالحِلم، بالعِلم، بالنُّعمى إذا اتَّصَلَت، بالخِصب إن جدبُوا، بالرَّيِّ للصَّـادي

بالطّاعِنِ الضَّاربِ الرّامي إذا اقتتلوا، بالموْت أحمرَ، بالضرْغامة العادي!

بالدَّهر في نِقَم، بالبحْر في نِعَـــم، بالبدْر في ظُلَم بالصَّدر في النّـَادي

نعَم، هو الحقُّ وافاني به قَـــــدَرٌ منَ السّماء فوافاني لميـــــــعادِ

ولم أكنْ قبلَ ذاك النَّعْش أعلمُـــــهُ أنَّ الجِبال تهادى فوْق أعْـــــوادِ!

كفاكَ فارفُق بما استوْدعْتَ من كَرَم، روّاك كل قَطُوب البرْق رعّـــــادِ!

يبكي أخاهُ الذي غيَّبْتَ وابِلــــهُ تحتَ الصَّفيحِ بدمْعٍ رائحٍ غـــادي

حتّى يجودَك دمعُ الطّلّ مُنهـــمِراً من أعْينِ الزَّهر لم تبخَلْ بإسْعـادِ

ولا تزال صلواتُ الله دائمـــــةً على دفينِكَ لا تُحْصى بتِعـــــدادِ!

قَصائِدُ الْوافِدين



1- أبو بَكر بنُ اللبانة[1]

أ- لكُلِّ شيءٍ.. ميقات[2]

في سياق زيارته للمعتمد بأغمات، حكى ابن خاقان (قلائد العقيان، الجزآن 1 و 2، ص. 103.) عن ابن اللبانة وهو يرثي حال المعتمد: «ندبه بكل مقال يُلهب الأكباد (...) سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاحباً، وغدا بها لذيول الوفاء ساحباً، فمن ذلك قوله»:

1- جاء في المعجب عن ابن اللبانة ما يلي «وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى، من أهل مدينة دانية، وهي على ساحل البحر الرومي، كان يملكها مجاهد العامري وابنه علي الموفق على ما تقدّم.

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز، وكانا شاعرين، إلا أن عبد العزيز لم يرضَ الشعر صناعة ولا اتخذه مكسباً، وإنما كان من جملة التجار؛ وأما أبو بكر فرضيه بضاعة وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسمى الرتب عندهم؛ وشعره نبيل المأخذ، وهو فيه حسن المهيع، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها، وجودة المعاني ولطافتها؛ كان منقطعاً إلى المعتمد، معدوداً في جملة شعرائه، لم يفدْ عليه إلا آخر مدته؛ فلهذا قلّ شعره الذي يمدحه به.»، ص.219.

2- ديوان ابن اللبانة الأندلسيّ، من ص. 114 إلى ص. 117.

لِكلِّ شيءٍ من الأشياءِ ميقـــــاتُ ... وللمُنى من مَنائيهنّ غايـــــــاتُ

والدَّهرُ في صِبغةِ الحرباءِ مُنغـمسٌ ... ألوانٌ حالاتِهِ فيها استـــــــحالاتُ

ونحنُ من لُعَب الشّطرنجِ في يـــدِهِ ... وربَّما قُمِرت بالبيْدق الشّـــــــاةُ

انفضْ يديْك من الدُّنيا وساكنِهـــا ... فالأرضُ قدْ أَقْفرت والنّاسُ قدْ ماتوا

وقلْ لعالمِها الأرضيّ قد كتَـــمَت ... سريرةَ العالمِ العُلويّ أغمــــــاتُ

طوت مظلّتها لا بل مذلّتُـــــــها ... من لمْ تزَل فوقهُ للعزّ رايــــــاتُ

منْ كانَ بيْن النَّدى والبأسِ أنصلـهُ ... هِنديّةٌ وعطاياهُ هُنَيْـــــــــداتُ

رماهُ من حيثُ لم تسترهُ سابـــغـةٌ ... دهرٌ مصيباتهُ نبلٌ مُصيبـــــــاتُ

وكانَ مِلءَ عيانِ العيْن تُبصـــرهُ ... وللأمانيّ في مَرآهُ مــــــــرآةُ

أنكرتْ إلا التواءاتِ القيودِ بـــهِ ... وكيف تُنكرُ في الرَّوْضاتِ حَـيّاتُ؟

غلِطتُ بين همايينٍ عُقِدن لــــه ... وبينَها فإذا الأنواعُ أشتـــــاتُ

وقلت: هُنَّ ذؤاباتٌ فكَمْ عُكست ... من رأسه نحو رجليْه الذؤابـــاتُ

حسبتها من قناهُ أو أعنَّتـــــــهِ ... إذا بها لثقاف المــجدِ آلاتُ

دَرَوْهُ ليْثاً فخافوا منهُ عاديـــــةً ... عذرتُهُم فلعدوى الليثِ عـــاداتُ

لوْ كانَ يُفرج عنهُ بعضَ آونــــةٍ ... قامتْ بدعوتهِ حتَّى الجمـــاداتُ

لهُ المهاباتُ بـالأرْواحِ آخـــــذةٌ ... وإن تكُن أَخذتْ منهُ المهابـــاتُ

بحرٌ محيطٌ عهِدناه تجيءُ لـــــهُ	كنُقطة الدَّارةِ السبع المحيطـــــاتُ

وبدرُ سبعٍ وسبعٍ تستميد بــــه الـ	ـسبع الأقاليمُ والسّبعُ السمــــاواتُ

به وإن كان أخْفاه السَّرارُ ســـــناً	قبل الصَّباحِ بِهِ تُجلى الدُّجنــــاتُ

لَهَفي على آل عبّادٍ فإنَّـــــــهمُ	أهِلَّةٌ ما لها في الأفْق هـــــــالاتُ

قاموا على الأمْن حيثُ البغْيُ مسبَغَةٌ	حولي مضاجعُهُم والغِلُّ مِحـــــواةُ

تمسّكتْ بعُرى اللّذّاتِ ذاتــــــهمُ	يا بئسَ ما جنتِ اللّذاتُ والـــــذّاتُ

راح الحيا وغدا منهم بمنزِلـــــــةٍ	كانتْ لنا بُكَر فيها ورِوْحــــــــاتُ

أرضٌ كأنّ على أقطارِها سُرُجـــــا	قد أوقَدَتهُنَّ بالأذهانِ أنبـــــــاتُ

وفوق شاطئ واديها رياضُ رُبــــا	قد ظلَّلْتَها من الأنشامِ دوْحـــــاتُ

كأنَّ واديها سلكٌ بِلُبَّتِـــــــــها	وغايةُ الحُسن أسلاكٌ ولَبَّـــــاتُ

نهرٌ شرِبْت بِعَبْرَيْه على صـــــورٍ	كانت لها فيَّ قبل الرّاح ســــوْراتُ

وكنتُ أورقُ في أيْكاتهِ ورقـــــا	تهْوى، ولي من رقيق الشِّعر أصواتُ

وكم جرَيْتُ بشطّي طعنتيْه إلــــى	محاسنٍ للهوى فيهنَّ وقْفـــــاتُ

وبالغُروسات لا جفَّت منابتُــــهـا	من النَّعيم غروساتٌ جَنِيّـــــــاتُ

معاهدٌ ليتَ أنّي قبلَ فُرقتِـــــــهـا	قد متُّ والتّاركوها ليْتهمْ ماتـــــوا

وربَّما كنتُ أسْمو للخليجِ بــــــهِ	وفي الخليج لأهْل الرّاح روْحـــاتُ

فجئتُ منْها بإخوان ذوي ثِقـــــةٍ	والأرضُ فيها من الإخوانِ آفـــاتُ

واعَظْتُ في آخرِ الصّحراءِ طائفــــةً   لغاتُهم في كتابِ اللهِ مُلغـــــــاتُ

بمغرب العدوة الأقصى دجا أملـــي   فهل له بديـــــار الشَّـرقِ مِشكاةُ

رغْدٌ من العيْشِ مالي أرتقيهِ ولـــي   عند ابن أغْلبَ أكنافٌ بسيـــطاتُ

إنْ لمْ يكُنْ عنده كوْني فلا سَعـــــَةٌ   للرِّزق عندي ولا للأنسِ ساعــاتُ

هو المرادُ ولكن دونه خَلْـــــــجٌ   رخاوة عندها بيضٌ مُضِـــــلاّتُ

وإن تَكُن وجْنتي من فوقه مذْهَبــــهِ   فليس تضربُ في وجْهي المُلِمّـاتُ

هُناكَ آوي من النُّعمى إلى كَنـــــَفٍ   فيه ظِلالٌ وأمواهٌ وجـــــــنّاتُ

بين الحصارِ وبين المُرتضى عمُـــرٌ   ذاكَ الحصارُ من المحذورِ مَنجـاةُ

هل يذكرُ المسجدُ المعمورُ شَرْجَبَـهُ   أم العُهودُ على الذِّكرى قديمـــاتُ

عندي رسالاتُ شوْقٍ عندهُ فعـسى   مع الرياحِ تُوافيهِ رســـــالاتُ

صارت مياسِمُهم والسُّحْب من حزن   لها دموعٌ عليها مُسْتَـــهِـلاتُ

ب- تَنشّقْ رَياحينَ السَّلام(1)

الثابت عن زيارة ابن اللبانة للمعتمد في سجنه بأغمات، أنها تمت سنة 486هـ. وقد ورد في (نفح الطيب، المجلد 4، ص. 257) أن هذه القصيدة «عملها في المعتمد وهو بأغمات سنة 486هـ».

تَنَشّقْ رياحينَ السّلام فإنَّـــــــما ... أفضُّ بها مِسكا عليكَ مُختَّمـــــــا

وقلْ لي مجازاً إن عدمتَ حقيقـــــةً ... لعلَّك في نُعمى فكم كنتَ مُنْعِمــــا

أفكر في عصْر مضى لكَ مُشــــرِقٌ ... فيرجِعُ ضوءُ الصُّبحِ عنديَ مُظلِمـا

وأعجَبُ من أُفقِ المجـــــرَّة إذ رأى ... كُسوفَك شمْسا كيفَ أطْلعَ أنْجُمــــا

لَئِنْ عَظُمت فيكَ الزَّريَّة إنّـــــنا ... وجدناكَ مِنها في المَزِيَّة أَعظَمــــا

قناةٌ سعت للطِّعن حتّى تقصَّـــفَــتْ ... وسيفٌ أطالَ الضَّربَ حتّى تثلَّمـــا

وطودٌ غريبٌ في الشّواهقِ أمــــرُه ... بَنى ظِلَّهُ منْ قدْ بنى وتهدَّمــــــا

منابِتُهُ زادتْ على النَّبعِ بالجـــنـى ... فإذْ عَرِيَتْ عادت مع النَّبع أسْهُمـــا

بكى آل عبّــــــــاد ولا كمُـــحمّدٍ ... وأبنـــــاءَه صوبُ السحائب إذْ هَمَى

حبيبٌ إلى قــلبي، حبيبٌ لقــــولهِ: ... «عسى وطــنٌ يدنــو بهــم ولعلّما»

1- الديوان، من ص. 179 إلى ص. 182.

صباحُهم كّنا به نحمَد السُّـــــرى فلمّا عدِمناهُ سرْينا على عمـــــى
وكُنّا رعيْنا العِزّ حوْل حِماهُـــــمُ فقدْ أجْدبَ المرْعى وقد أقْفرَ الحِمى
قُصورٌ خَلَتْ من ساكِنيها فما بِـــها سوى الأُدْم تمْشي حوْل واقفةِ الدُّمى
تُجيب بها الهامُ الصّدى ولَطالَـــما أجابَ القِيانُ الطائرَ المُترنِّـــما
كأنْ لمْ يكنْ فيها أنيسٌ ولا الْتَـــقى بها الوفدُ جمْعا والخميسُ عَرَمْرَما
ولا جـالتِ الآمـالُ فيها ثَباثـــبا فقامتْ إليها المكرماتُ لمالِـــما
ولا اخضرَّ روض في رُباها فخِلته توشّح منهم لا من النور أنعُمـــا
ولا انْعطَفَتْ فيها الغُصونُ فعانقـتْ وَشيجاً بأيْدي الدّارعينَ مُقوَّمـــا
ولم تخْفق الراياتُ فيها فأشبـــهتْ قوائمَ طير في ذُرى الجوّ حُوَّمـــا
ولا حسبتْ بيضُ الظّبى في فِرَنْدِهـا سوالفُ بات الدرُّ فيها مُنظِّمـــا
ولا جرَّ فيها صَعْدَةَ الرُّمحِ خلفــهُ فَتاها فقُلنا: الصِّلُّ أتْبَعُ ضيْغَمـــا
ولم يصْدعِ النقعَ المُثارَ سِنانُـــهُ كما صَدَعَ الظّلماءَ برقٌ تضرَّمـــا
ولا صورَت في جِسْمِهِ الدِّرعُ شكلَها فأشبهَ مما صورتْ فيه أرْقمـــا
جرى القَدَر الجاري إلى نَقْضِ أمـرِه فعادَ سحيلاً منهُ ما كانَ مُبرَمـــا
مصابٌ هوى بالنيِّراتِ من العُـــلا ولم يبقَ في أرضِ المكارمِ مَعْلـما
مُؤيّدُ لخْمٍ هلْ تؤمِّـــلُ عودةً فكمْ أمَلٌ أضْحى إلى النَّجْحِ سُلَّمـــا
حَكِيتَ وقد فارقت مُلْكَكَ مالِكـــاً ومن ولَهي أحْكي عليكَ «مُتَمّمَـــاً»

تضيقُ عَلَيَّ الأرضُ حتّى كأنَّـــمـا خُلِقتُ وإياها سِوارا ومِعصـــــما

نَدبْتُكَ حتّى لمْ يُخَلِّ لِيَ البُكـــــا دُموعها بها أبْكي عليكَ ولادَما

وإنّي عَلَى رسمي مُقيمٌ فإنْ أَمُـــتْ سأتركُ للباكينَ رسْميَ مُرَسّــمـا

بكاكَ الحيا والرّيحُ شقّت جُيوبَــها عليكَ وناحَ الرَّعدُ بِاسمكَ مُعْلِمـــا

ومزَّق ثوبَ البَرقِ واكتستِ الدُّجــى حِداداً وقامتْ أنجُمُ اللَّيـــلِ مأتمـــا

وحارَ بكَ الأصباحُ وجْدا فما اهْتــدى وغارَ أخوكَ البَحرُ غيْظاً فما طَمــى

وما حلَّ بدرُ التَّمِّ بعدكَ هالــــــةً ولا أظهرَتْ شمسُ الظهيرةِ مَبْسِمــأ

قضى اللهُ أن حَطَّوكَ عن مَتْنِ أشقــرٍ أشمّ وأن أمْطَوْكَ أشأمَ أدْهَمـــــــا

عجبت لأن لاَنَ الحديدُ وأن قَسَــوا لقدْ كانَ منهُم بالسريرةِ أعْلمـــــــا

قيودُك دانتْ فانطلقتَ لقدْ غــــدت قيودُك منهمْ بالمكارمِ أرْحمـــــــا

سيُنْجيكَ من نَجّى مِنَ الجُبِّ يوسُفــا ويُؤويكَ من آوى المسيحَ ابنَ مرْيَمـا

فما كانَ قيسٌ هلكُه هلكُ واحـــــدٍ ولكنَّهُ بُنيانُ قوْمٍ تَهَدَّمــــــــــــا

ج- لُحْ كوكباً[1]

مناسبة هذه القصيدة، كما هي لدى المراكشي (المعجب، ص. 237) أن وَلَـد المعتمد المُلقّب بـ فخر الدولة «أسلم نفسه في السوق، وتعلّم من الصنائع صنعة الصُّوّاغ، فمَرّ به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر شاعر أبيه فقال في ذلك:

أذْكى القلوبَ أسى أبكى العيون دمـا ... خطبٌ وجدْناكَ فيهِ يُشبهُ العدَمـــا

أفراد عِقد المُنى منَّا قد انتثـــرتْ ... وعقد عُروتنا الوُثقى قَدِ انْفصَـــما

شكاتُنا فيكَ يا فخرَ العُلا عَظُـــمَت ... والرُّزْءُ يعْظُم في مَنْ قدرُهُ عَظُمـا

طُوِّقْتَ من نائباتِ الدّهر مُخْنُقَـــةً ... ضاقَتْ عليكَ وكمْ طوَّقْتَنا نِعَمـــا !

وعاد طوْقُكَ في دكانِ قارِعـــــةٍ ... من بعدِ ما كنتَ في قصرٍ حكى إرَمـا

صرّفتَ في آلة الصواّغ أنمـــــلةً ... لم تدرِ إلا النّدى والسيفَ والقَلَمـا

يدٌ عهدتكَ للتقبيل تبسُطُـــــــها ... فتستقلُّ الثريّا أن تكونَ فَمـــــا

يا صائِغا كانتِ العليا تُصاغ لـــــهُ ... حَلْيا وكان عليهِ الحَلْيُ مُنتظِمـــاً

للنَّفخِ في الصُّور هولٌ ما حكاه سوى ... هولٍ رأيتكَ فيهِ تنفُخُ الفَحَمـــــا

1- الديوان، ص.ص. 183 - 184.

وددتُ إذ نظرتْ عيْني إليكَ بـــــهِ   لو أنّ عينيَ تشكو قبلَ ذاكَ عَمَـــى

ما حطّك الدهرُ لما حَطّ من شــــرَف   ولا تحيّفَ من أخلاقِكَ الكرَمـــا

لُحْ في العُلا كوْكباً، إنْ لمْ تَلُحْ قمــراً   وقُمْ بها ربوةً إن لمْ تقُمْ عَلَمـــا

واصبرْ فرُبَّتَما أحمدتَ عاقبـــةً   من يلزمِ الصّبر يحمدْ غِبّ ما لـزما

واللهِ لو أنصفتكَ الشهبُ لانكســفتْ   ولوْ وَفى لكَ دمعُ الغَيْثِ لانْسـجما

بكى حديثُك حتى الدرَّحينَ غَـــدا   يحكيكَ رهطاً وألفاظاً ومُبتـــسما

وروضة الحسن من أزهارها عرِيَتْ   حُزناً عليكَ لأنْ أشبَهتها شِيمـــا

بعدَ النَّعيم ذوى الريحانُ حيـــنَ رأى   ريحانَكَ الغضَّ يذْوي بعدَ ما نعِمـــا

لم يرحمِ الدّهر فضلاً أنتَ حامـــلُهُ   منْ ليسَ يرحمُ ذاك الفضلَ لا رُحِما

شقيقكَ الصُّبحُ إن أضْحى بشارقـــةٍ   وأنتَ في ظلمةٍ فالصُّبحُ قد ظَلمـــا

د- الماجِدُ السّميْدع[1]

حين رد المعتمد على ابن اللبانة بقصيدته، التي يأتي في شطرها الأول من المطلع «رد بري بغيا عليّ وبرا»، راجعه الثاني بقصيدة أخرى، مُوجِّهاً إليه خطابه:

أيُّها الماجِدُ السمَيْدُع عُـــذراً صرفيَ البرَّ إنما كانَ بـــرَّا

حاشَ للهِ أن أُجيحَ كرِيمـــاً يتشكَّى فقْراً وكمْ سدَّ فـــقْرا

لا أزيدُ الجفاءَ فيهِ شُقوقـــا غدرَ الدّهرُ بي لئنْ رمتُ عُذرا

ليتَ لي قوةً أوَ آوي لركـــنٍ فترى للوفاءِ منّيَ سرّاً

أنتَ علَّمتني السِّيادةَ حتّـــى سِرْتُ أرْقى على الكواكبِ قـرْا

رُبحت صفقةٌ: أزيلُ بُـــرُوداً عن أديمي بها وألبسَ فخـــراً

وكفاني كلامُكَ الرّطبُ نيـــلاً كيفَ أُلقِي دُرّاً وأطلبُ تِبـــراً

لمْ تَمُتْ إنّما المكارمُ مـــاتتْ لا سَقى اللهُ بعدكَ الأرضَ قَطـْراً

1- الديوان، ص 136.

هـ- أقولُ سلام[1]

في تقديم القصيدة، نقرأ على لسان ابن اللبانة (الذخيرة، القسم 2، المجلد 1، ص. 65.) ما يلي: «وبَلَغَت حالي عنده من التقريب والترحيب أن أفرطت في الإدلال، وانبسطت في الاسترسال، وخاطبته في أن يكون زادي من نعمائه، وأن يحاول صنعه بعض إمائه ، حرصاً مني على التشريف، وسعياً إلى الاستزادة من شكر المعروف، فكان ذلك على أحسن وجه (...)، وكنت خاطبته في ذلك بهذه القطعة:

وداعٌ ولكنّي أقولُ سَـــــــــــلامُ	وللنَّفس في ذكرِ الوداعِ حِمـــــامُ
أخادعُ نفْساً إن تحققتِ النَّـــــوى	فليسَ لها بين الضُّلوع مَقـــــامُ
قد ائتلفتْ أهواؤها بكَ جُملــــــةً	كما ائتلفت في وكرهنَّ حمــــــامُ
وشقَّت عن النُّصح المُبينِ جيوبـُــها	كما شقَّقت عن زهرهنَّ كمــــامُ
أكرِّر لحظي في محيّاكَ إنّــــــه	لَنورِ الهُدى فيهِ عليكَ قَسَــــــامُ

1- الديوان، ص. 186.

وأحمِلُ من تقبيلِ كفِّكَ سُـــــــؤدداً   على عاتِق الجوْزاءِ منهُ حُســـــامُ

أَملْبِسيَ النُّعمى قديماً، ومثلُـــــــهَا   حديثاً، وأحداثُ الزَّمانِ عِظـــام

لأجلسْتني حتى اتكأتُ ولم يــــزَلْ   يُدِلُّ على المولى الكريمِ غـــلامُ

عسى عند حملِ العِيسِ رحليَ في غدٍ   يُهيَّأ من زادي لديكَ طـــعـــامُ

وميْلي إلى الطاهي وطـــيب إرادةٍ   ليثبت لي في وصفِ ذاكَ كـــلامُ

وكيفَ أزيدُ المجدَ صحف محـاسنٍ   سهرتُ لها والعالمونَ نيـــــامُ

و- أدْرى بفضْلك[1]

كان المعتمد قد بعث، من سجنه، إلى ابن اللبانة قصيدته «إليك النزر من كفّ الأسير»، مرفوقة بعشرين مثقالاً وشقة رازي بغدادي. غير أن ابن اللبانة اعتذر عن صلته تلك، كما جاء لدى ابن بسام (الذخيرة، القسم 2، الجزء 1، ص. 63)، من خلال قوله: «فرددت عليه صلته وكتبت إليه مع ذلك:

سقطْتَ من الوفاءِ على خبير	فذرْني والذي لك في ضميري
تركتُ هواكَ وهْو شقيقُ ديني	لئن شُقَّت برُودي عن غُدُورِ
ولا كنتُ الطليقَ من الرزايا	لئن أصبحتُ أجحفُ بالأسيرِ
أسير ولا أصير إلى اغتنام	معاذ الله من سوء المصير
إذا ما الشُّكرُ كانَ وإنْ تناهى	على نعمى فما فضلُ الشكورِ
أنا أدْرَى بفضلكَ منكَ إنّي	لبستُ الظلّ منهُ في الحرور
غنيُّ النفسِ أنتَ وإن أَلَحّتَ	على كفَّيْكَ حالاتُ الفقيرِ
تُصَرِّفُ في الندى حِيَلَ المعالي	فتسمحُ من قليلٍ بالكثيرِ

1- الديوان، ص،ص.144 - 145.

أُحدِّثُ منكَ عن نبْعٍ غريبٍ تفتَّحَ عن جَنَى زهْرٍ نضيرِ
جذيمةُ أنت والزباءُ خانتْ وما أنا من يُقصِّر عنْ قصيرِ
وأعجبُ منكَ إنّكَ في ظلامٍ وترفعُ للعُفاةِ منارَ نورِ
رويدَكَ سوفَ توسعُني سُروراً إذا عادَ ارتقاؤكَ للسَّريرِ
وسوفَ تُحلُّني رُتَبَ المعالي غداةَ تحُلُّ في تلكَ القُصورِ
تزيدُ على ابنِ مروانَ عطاءً بها وأزيدُ ثَمَّ على جريرِ
تأهَّبْ أن تعودَ إلى طُلوع فليسَ الخسفُ ملتزمَ البُدورِ

ي- دُرَّة للْمَعالِي[1]

في أثناء زيارته له بأغمات، قام ابن اللبانة مادحاً المعتمد بهذه الأبيات:

لمْ أقلْ في الثقافِ كـانَ ثِقافــــــاً   كنتَ قلْباً لهُ وكـانَ شِغافــــــا

يمكثُ الزّهر في الكمام ولكـــــن   بعد مكثِ الكمامِ يدنو قِطافـــا

وإذا ما الهلالُ غابَ بغيـــــــمٍ   لم يكنْ ذلكَ المغيبُ انْكسافـــا

إنَّما أنتَ درّةٌ للمَعالــــــــــي   ركَّب الدّهرُ فوقَها أصْدافــــــا

حجبَ البيتُ منكَ شخصاً كريمــاً   مثلَما تحجب الدنانُ السُّلافـــا

أنتَ للفضلِ كعبةٌ ولو أنِّـــــــي   كنتُ أستطيعُ لاستطعتُ الطّوافـا

1- الديوان، ص. 159.



2 - ابنُ حمْديس[1]



أ- أمِثلُكَ موْلى[2]

هذه القصيدة جواب من ابن حمديس على قصيدة اعتذار المعتمد، التي يقول في مطلعها: «حُجبتَ فلا واللهِ ما ذاكَ عن أمْري». وعن سياق الحوار الشعري بينهما، نقرأ في تقديم قصيدة المعتمد الآنفة، التي تمّ إرفاقها بشعر ابن حمديس (الديوان، ص. 270)، ما يلي «ومضى عبد الجبار لزيارة المعتمد في أغمات فصرفه بعض خدمه بأنه لا يوجد في ذلك الوقت. فرجع عبد الجبار إلى منزله، فأخبر

1 - في ديوان شعره، هناك مقدمة تناول فيها الدكتور إحسان عباس حياة الشاعر بكثير من التفصيل. ومما ورد فيها «في مدينة سرقوسة الواقعة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية ولد عبد الجبار بن حمديس سنة447هـ/ 1055م من أصل عربي أزدي، هكذا تنسبه المصادر إلا أنه لا يفتخر في شعره بهذا النسب مثلما يفتخر بأنه من «بني الثغر» أي يعتز بوطنه أكثر من اعتزازه بالقبيلة».

وقد قسم د. إحسان عباس حياة ابن حمديس إلى ثلاثة أقسام، هي:

أ- في صقلية، من 447 إلى 471هـ (حياة النشأة والشباب)

ب- في الأندلس، من؟؟؟ إلى 484 (سنة خلع المعتمد)

جـ- في إفريقية، من 484هـ إلى 527 (الالتحاق بالأهل بسفاقس بعد ضياع صقلية)

ابن حمديس، ديوان ابن حمديس، صححه وقدّم له د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

2- الديوان، ص، ص.271 - 272.

المعتمد بمجيئه ورجوعه ، فعسر ذلك عليه، وعنّف خدمه، وكتب إليه بالغداة بهذا الشعر يعتذر إليه».

أمثلُكَ موْلى يبسُطُ العبدَ بالعـــــذرِ   بغيرِ انقباضٍ منكَ يجري إلى ذكــــرِ

لَهَدَّ قريضَ الفضلِ ما هدَّ من قــوى   وحلَّ بهِ ما حلَّ من عُقدةِ الصَّبـــــرِ

وإنِّي امرؤٌ في خَجْلة مُستمــــرةٍ   يذوبُ لها في الماءِ جامدةُ الصّخرِ

أتتني قوافيكَ الّتي جلَّ قدرُهـــــا   بما نقطةٌ منهنَّ مُغرِقةٌ بَحْـــــري

لعلَّك إذ أغنيْتَني منكَ بالنّـــــدى   أردتَ الغِنى لي من مديحِك بالفخْر

لعمريَ إني ما توهمتُ ريبــــــةً   فتدفعَ وجْهَ العُرْفِ عندكَ بالنّكــرِ

وطبعُكَ تِبْرٌ سحَّرَ الفضلُ محْضَــهُ   وحاشا لهُ أن يستحيلَ معَ الدَّهــــرِ

وكنتُ أمَلُّ الجُودَ منكَ وأنـــتَ لا   تملّ عطاءً منهُ يأتي على الوفْـــرِ

فكيفَ أظنُّ الظنَّ غيرّ مبَــــرَّإٍ   -تَواضعَ تيهاً كوكبُ الجوّ عنْ قَدْري-

يخفُّ على خدّامِ ملكِكَ جانبــــي   كما خفَّ هُدْبٌ في العُيونِ على شفرِ

إذا طارَ منهم بالوصيَّةِ سَــــوْذَقٌ   فذلكَ في إفصاحِ منطقهِ القمـــري

تُحدِّثُ عيني عينَهُ بالّذي يـــــرى   بوجهكَ لي منْ حُسنِ مائيّة البِشــر

ليالـيَ لا أشدوكَ إلا مُطـــــوَّقاً   بنُعماكَ في أفْنانِ روضاتكَ الخُضر

وما زال صوْبٌ من نداكَ يبُلُّنــــي   ويُثقلُني حتّى عجَزْتُ عن الوكْــر

بكيتُ زماناً كانَ لي بكَ ضاحــــكاً   وَكسْرُ جناحي كانَ عندكَ ذا جِســرْ

وأطْرقْتُ لما حالتِ الحالُ حَيْـــــرةً تحيَّرَ منْها عالمُ النّفسِ في صـــدْري

فخُذها كَما أدْري وإن كَلَّ خاطِـــري وإنْ لمْ يكنْ منْها البديعُ الّذي تدْري

ب- رفعتُ لِساني[1]

في هذه القصيدة، يردّ ابن حمديس على قصيدة المعتمد، التي يقول في مطلعها: «غريبٌ بأرضِ المَغربينِ أسيرُ...». وللإشارة، فإن هذه القصيدة لا ترتبط بمجموع «قصائد السجن»، إلا من حيث كونها تستحضر المعتمدَ في سياق سجنه بأغمات.

جَرَى بِكَ جَدٌّ بالكرامِ عَثـــــــورُ وجارَ زمانٌ كنتَ فيهِ تُجـــــيرُ

لقد أصبحتْ بيضُ الظبا في غُمودها إناثاً لِتركِ الضَّربِ وهْي ذكـــورُ

تجيءُ خلافاً للأمورِ أُمـــــورُنا ويعدِلُ دهرٌ في الورى ويجـــورُ

أتيأسُ في يومٍ يُناقض أمسَـــــهُ وزُهْـر الـدّراري في البُروج تـدورُ

وقد تنْتخي الساداتُ بعد خُمولِهـــا وتخرجُ من بعدِ الكُسوفِ بُـــدورُ

لئنْ كنتَ مقْصوراً بدارٍ عمَرْتَهـــا فقد يُقْصَر الضِّرغامُ وهْو هصـورُ

أغرَّ الأسارى أن يُقالَ محمـــــدٌ غريبٌ بأرضِ المغربينِ أســـيرُ

تنافس من أغلالها في فكاكـــها ويُقْصَمُ منها بالمصابِ ذكـــورُ

وكنت مسجَّى بالظبا من سجونـِها بسورٍ لها إن السُّجونَ قُبـــــورُ

إلى اليومِ لم تَذعَرْ قَطا الليلِ قُـــرَّحٌ يغيرُ بها عند الصّباحِ مُغـــــيرُ

1- الديوان، ص،ص.268 - 269.

ولا راحَ نادٍ بالمكارمِ للغِنـــــــى   يقلبه في الرّاحتين فقيـــــــــــرُ
لقد صنتَ دين اللهِ خيرَ صيـــــانةٍ   كأنك قلبٌ فيهِ وهو ضَمـــــــيرُ
ولمَّا رحلتُمْ بالنَّدى في أكفـــــكمْ   وقُلْقِلَ رضْوى منكمُ وثبيـــــــرُ
رفعت لساني بالقيامة قد أتـــــتْ   أَلاَ فانظُروا هذي الجبالُ تســـيرُ

3- أبُو بَكْر بَحْر بنُ عبْدُ الصَّمَد[1]

مَلِكَ المُلوك[2]

- القصيدة أدرجها المُحقِّق منجد مصطفى بهجت في إطار «المُلحق بشعر ابن اللبانة»، على الرغم من إقراره بانتساب القصيدة إلى أبي بكر بحر بن عبد الصمد. وفي سياق القصيدة، نقرأ لدى ابن خلكان (وفيات الأعيان، المجلد 4، ص. 289) ما يلي: «واجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح، ويجزل لهم المنائح، فرثوه بقصائد مطوّلات، وأنشدوها

1 - ترجم له صاحب الذخيرة، في القسم الثالث من الجزء الثاني، على النحو الآتي «وهو يوسف بن أبي القاسم خلف بن أحمد بن عبد الصمد، جدهم الأول كان السمح بن مالك بن خولان، أحد أمراء الأندلس في ذلك الأوان، قبل دخول بني مروان، من تقديم عمر بن عبد العزيز. وهؤلاء الصمديون قوم من ذوي الهيئات، متقدمون في الكتابة وأدوات أهل النباهات»، ص.809.

من جهة أخرى، ذكره ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب»، الجزء الثاني، فقال: «أثنى عليه صاحب السمط والمسهب. وكان في زمان ملوك الطوائف. ورثا المعتمد بن عباد بما تقدم إنشاده في ترجمته»، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، القاهرة،1980، ص.203.

2- ديوان ابن اللبانة الأندلسيّ، من ص. 201 إلى ص. 206.

عند قبره، وبكوا عليه، فمنهم أبو بحر عبد الصمد شاعره المُختصّ به، رثاه بقصيدة طويلة أجاد فيها...

مَلِكَ المُلوكِ، أسامِعٌ فأُنـــــــادي   أمْ قدْ عدتْكَ عن السّماعِ عَـــوَادِ؟

لمّا خلتْ مِنكَ القُصورُ فلم تكُـــن   فيها كَما قد كُنتَ في الأعْيـــــادِ

أقبَلْتُ في هذا الثّرى لكَ خاضعـــاً   وتَخِذتُ قبرَكَ موْضِعَ الإنشـــادِ

قد كنتُ أرجوُ أن تُبَرِّد أدمُعــــــي   نيرانُ حُـزنٍ أُضْرِمَت بفُـــؤادي

فإذا بدمْعي كلَّما أجريْتُـــــــــهُ   زادتْ عليَّ حرارةُ الأكْبــــــادِ

فالعينُ في التَّسكابِ والتَّهتانِ والــ   أحشاءُ في الإحْـراقِ والإيقَـــادِ

يا أيُّها القمرُ المنِيرُ أَهَكَـــــــذا   يُمْحى ضياءُ النَّيِّرِ الوقَّـــــادِ

أفقدتُ عيني مُذْ فقدتُ إنـــــارةً   فمجالُها في ظُلمةٍ وســــــوادِ

ما كانَ ظنّي قبلَ موتـــكَ أن أرى   قبْراً يَضُمُّ شوامخَ الأطْـــــوادِ

اَلهضبةُ الشمَّاءُ بين ضريحـــــهِ   والبحرُ ذو التيَّار والأزْبـــــادِ

عهدي بِمُلْكِكَ وهْو طلْقٌ ضاحِـــكٌ   مُتَهلِّلُ الصفحاتِ للقُصّـــــــادِ

والمالُ ذو شمْل مُذادٍ والنـّــدَى   يهْمِي وشمْلُ المَجْدِ غيرُ مُـــذادِ

أيّامَ تخفِقُ حولَكَ الآياتُ فـــــو   قَ كتائبِ الرُّؤساءِ والأجْنـــادِ

والأمرُ أمْرُكَ والزّمانُ مبَشِّــــر   بممالكٍ قد أذْعَنَتْ وبِـــــــلادِ

والخيلُ تمرحُ والفوارسُ تنْحنـــي بيْنَ الصَّوارِمِ والقَنا الميّـــــــادِ
إذ تحسبُ الهيجاءَ روضاً يانعـــاً وترى الأزاهـرَ من ظُبى وصعـــادِ
وتخالُ عثْيرها دخانَ الفدفـــــــد فغم الأنُوف وعَامَ فوقَ النّـــــادي
وكأنَّ بيضَ المُرهفاتِ على الطُّلـى وُرق الحمامِ على الغُصون شـــوادِ
ولكمْ هززتُ العَطف من طربٍ بها وجررتُ أذيالاً مـــــــنَ الأزْرادِ
وسقيت رمحكَ ثمَّ من ماءِ الطلـــى ورعى حسامك من بناتِ الهـــــادِ
وكأنّما في الدرعِ منكَ ربيعــــــةٌ بين مُكَدّم والحارثِ بنِ عبّـــــادِ
حتّى إذا ما الدهرُ أظهرَ حقـــــدهُ والدّهر للأحرارِ ذو أحْقـــــــادِ
ألقتْ بأيْديها مَعاقلكَ الّتــــــي مُلئتْ منَ العُقْبـانِ والآســـــادِ
وتهدَّمتْ أركانُ كلِّ رئاســـــةٍ وانهدَّ حولَ المُلكِ كل عِمــــــادِ
قالوا أضاعَ الحزمَ وهْي بواطـــلٌ نوُر الحقائقِ للنّواظرِ بـــــــادِ
وإذا انقضتْ أيّامُ مُلك فالعنـــــا في غايةِ الإكثارِ والإعـــــــدادِ
حازتْ بَنُو العبّاسِ ملكَ أميــَّــةٍ وهُمُ ذوو الأعدادِ والأمــــــدادِ
ورأى معاويةٌ عليّاً هالِــــــكاً وعليٌّ الليثُ الهزبْرُ الْعــــــادي
والدّهر أذْهبَ تُبَّعا وجموعَــــــهُ وأزالَ ملكَ الأرضِ عن شـــدّادِ
إنِّي لأستحييهِ من قوْلي حـــــوى حزْمَ المُهلّب في نُفوذِ زيــــــادِ
وهوَ الّذي يدريهِ كلُّ محقــــــقٍ دولٌ مُخلَّدةٌ إلى آمـــــــــــادِ

إنّي لأعجبُ بعدَ فقدكَ كيْـــــفَ لا   تتكسّر الأسيافُ في الأغْمـــــادِ؟

أيخضَّبُ الخطيُّ بعدكَ ثغـــــرهُ   أو يركعُ الهنديُّ فوق الهـــــادي

أو يلتقي الشجعانُ تحتَ عجاجــةٍ   أو يقتضي الميدانُ سبْقَ جـَــــوادِ

قدْ كانتِ الأمْداحُ يجعل دُرُّهـَـــا   في كفِّ أيِّ مُميزٍ نقّـــــــــادِ

مَنْ يفتح الأمصارَ بعدَ مُحمَّــــدٍ؟   منْ يعقد الراياتِ للقُـــــــوّادِ؟

مَنْ يطعن النَّجلاءَ في المــرّاقِ أوْ   من يضربُ الأخدودَ في المـُــرّادِ

منْ يتركُ الأسطاَر في الأوْراقِ مثـ   لَ الحِلى في اللَّبّاتِ والأجيــــادِ؟

من يفهمُ المعْنى الخفيّ، ومن لـهُ   صدقُ الحديثِ وصحة الإيــــرادِ؟

منْ يلبسُ الحصداءَ وهْي حصينـةٌ   وكأنَّما هِيَ مِنْ عيونِ جـَـــــرادِ؟

ويُقلِّدُ الصّمصامَ وهْو مُنمـــَّــــقٌ   يفرند إفرندٍ وحلى نِجــــــــادِ؟

منْ ذا يمنُّ على العفاة ظلالــــهُ   ويُبَلّغُ الآمالَ كُلَّ مـُــــــــرادِ

من يبذلُ الآلافَ للزّوارِ والـــــــ   مدَّاحِ والقُصّادِ والــــــــروّادِ؟

هيهاتَ ماتَ الجودُ بعدَ مُحمَّـــــدٍ   وأصابَ بزَّ الفهم كلَّ فســــــادِ

ودجا الزّمانُ وأقحطتْ أيّامـــــهُ   فالجدبُ موجودٌ بكلِّ مـــــــرادِ

لوْ أصبحَ الطائي في ذا العصرِ لَـمْ   يَدرك بقولِ الشّعرِ قُوتَ مــــرادِ

مسخَ الزّمانُ بأهلهِ فَتعوَّضـــــوا   مِنْ ذلكَ الإصلاحِ بالإفســـــادِ

يا ساكنَ القبرِ الذي فقدانُـــــــهُ   قَتَلَ الرّجاءَ وفَتَّ في الأعضــــادِ

كُنّا نؤملُ أنْ نرى لكَ كَـــــرَّةً تُعطي بِها الأيّامُ كُلَّ قِيـــــادِ

وتبيتُ خيلُكَ في مرابِطها علـــى وعدٍ منَ الإتهامِ والإنجـــادِ

وتُمهِّد السلطان في الأقطار للـــ أصهارِ والحـــفداءِ والأولادِ

فإذا المنايا قاطعاتٌ بالمنـــى والدّهرُ لا يُردي سوى الأجْـوادِ

قدْ كانَ هزّ الرمح عطفي قـــده وأبى الحسامُ العضبُ من أَغمـادِ

وتَصاهلتْ قبُّ الجيادِ إلى الوغـى وتضاحكَ الأنجادُ للأنجـــادِ

إذ حانَ حينُ الحين أَدركَكَ الــرّدى فكأنَّ موتَكَ كانَ بالمِرصـــادِ

لو كنتُ إذ ساروا بنعشكَ حاضـراً لرأيتُ ثهلاناً على الأعـــوادِ

إِنّي لأعجبُ من ضجيعتِكَ الّتــي قدْ كانَ قربُكَ أنْسها في النّـادي

جاوَرْتَها في قبْرها فكأنَّمـــا قدْ كُنتما في ذا على ميعـــادِ

راحتْ وأقلقكَ الهوى مِنْ بعدِهـا فمشى إليها فوق نَعشكَ غـــاد

جَمعتْكُما أغماتُ في التُّربِ الــّذي وُسِّدْتُما منهُ بأيِّ وِســـاد

أُمَّ المُلوكِ أما علمتِ بزائـــرٍ لكِ ذي وفاءٍ مُخلـــصٍ ووِدادِ

أبْكى العُلى والمجدَ فقدُكُما الـَّذي لبستْ لهُ الدُّنيا ثيابَ حِـــدادِ

لَهَفي على تلكَ السّجايا إنَّهـــا زهرُ الرُّبا الموشيَّةُ الأبْــرادِ

كمْ نِعمةٍ خضراءَ قدْ ألبستَنـــي ومواهبا واليتها وأيـــادِ

ناديتُ كفكَ ظامئاً مُستمطِـــراً فقضى عليَّ نداك باستعبـــادِ

أخجلتَ في الجودِ الّذي وفّقتَ، حـا　　　تَمَ طيِّءٍ وفضحتَ كعبَ إيــــادِ

قد كنتُ لا أرضى البحارَ مناهــلاً　　　زهْوا ولا أرضى السّماءَ مِهــادي

في دولةٍ غرّاءَ عبّاديّــــــــة　　　فلَّت من الأملاك كلَّ عِنـــــادِ

ورياسةٍ يحْمي البلادَ رئيسُهـــــا　　　يوماهُ يومُ ندى ويومُ جِـــــلادِ

والبدرُ تُرسي والثريّا معْقلــــي　　　والصُّبحُ سيْفي والرياحُ جِيـــادي

أغْرقتني في بحرِكَ الطّامي الَّـذي　　　منع الظّماء ورود كُلِّ ثِمـــــادِ

وسللت في نصري سيوفَ مكـارمٍ　　　تركتْ سيوفُ الهندِ غير حِـــدادِ

عادتْ بِحاراً إذ سقيتَ ضحاضحي　　　وغدتْ هِضاباً إذ رفعتَ وهـــادي

ومددتُ كفِّي للكواكبِ قاعـــــداً　　　فَبَلَغْتُها لمّا غدوتُ مصـــــادي

نفَّقتني والدّهرُ يبخسُ قيمتـــــي　　　وأفقتَ في رخصي به وكســـادي

وأقمتَني لمّا رأيتَ حوادثَ الـــــ　　　أيّامِ قدْ أسرفنَ في إقعـــــادي

فالجفنُ بعدكَ ليسَ يدْري ما الكرى　　　في دمعةٍ مُنهلَّة وسهــــــادِ

وكأنَّ قلْبي في مخالبِ طائــــرٍ　　　وكأنَّ جَنبي فوْق شَوْكِ قَتـــادِ

إنْ لمْ تَطِبْ فيكَ المراثي والثَّنـــا　　　مِنّي فلستُ بطيِّب الميــــلادِ

إنّ السياداتِ الّتي قد حُزتَهـــــا　　　تركَتْكَ مُنفرداً بلا أنْـــدادِ

ولئنْ مضيتَ فإنَّ ذِكرَكَ خـــالـدٌ　　　يبْقى معَ الأيّامِ والآبـــــادِ

يا صاحبَ القبْر الّذي قدْ أصْبحـتْ　　　زهرُ الرياضِ بضفتيْ بغـــدادِ

راقت وجوهُ الكُتْبِ بالنُّكَتِ الّتـــي منعتْ زنادَكَ ثمّ من أصـــــلاد

لما فقدت المثلَ آثركَ الـــــرّدى ومنَ الصحيحِ تنافرُ الأضــــدادِ

شقُّوا الثيابَ وجَدِّدوا أحزانَكُـــمْ وصِلُوا التّلهُّفَ يا بني عبّــــادِ

أفَلَتْ لكمْ شمسُ العُلا وتَهدَمَ الـــ سُّورُ المُنيفُ وجَفَّ بحرُ الصّــادي

كَمْ رَدّ لفْحَ الخَطبِ عنكُمْ ظلُّـــه وحَماكُم مِن مثلِ عاصفِ عـــادِ

لولا أميرُ المسلمين وفضـلُـــهُ لمْ تَكتحِلْ أجفانُكُمْ برقــــــادِ

واللهُ يُبقيهِ لكمْ ليَصونَكُـــــمْ مِنْ كُلِّ حادثةٍ يخافُ فـُـــؤادي

ألقى عليكُمْ ستره وأقالكــــــمْ قدْ تُشفقُ الأمجادُ للأمْجـــــادِ

كانَ ابن عبّادٍ صباحاً مُسفِـــراً لِغياهبٍ إنْ أظلمـَــــــت ودآدِ

كمْ باتَ منهُ البحرُ تحتَ سكينـــةٍ والطودُ ذو الهضباتِ فوقَ وِســادِ!

ما كان إلاّ الرّوضُ موشيَ الحلـــى سُقِيتْ أزاهرُه بصَوْبِ عهــــادِ

يهتزُّ عند المَدحِ معطفهُ كمـــــا يهتزُّ عطفُ الأمْلدِ المَيـــّـــادِ

يا موتُ لم تتركْ حَنيفا مُسلمـــاً صعب اللِّقاءِ على ذوي الإلحـــادِ

قدْ كانَ مِنْ أعلى المُلوكِ رياســـةً وفُؤادُهُ منْ أروعِ الزُّهـــّــادِ

يا موتُ لم تُشفقْ لغُربتهِ ولـــــمْ تَرَ ما تَخلَّـــــفُهُ مِــنَ الأوْلادِ

ما وَرَّثَ الأبناءَ إلا مجــــدَهُ إنَّ العُلى ميراثُ كلِّ جـَــــوادِ

كُنّا نُفَدِّي موتهُ بِنُفوسِنـــــــا لوْ كانَ يقبلُ فيهِ مِنّا فـــــادي

يا موتُ كيْفَ رأيتَ صبرَ مُحــمَّـدٍ   قبلَ احتلالكَ كانَ في اسْتعــــدادِ

كمْ رامَ في رَجَبٍ لقاءَكَ جاهِــــداً   والحَظّ ليسَ ينالُ دونَ جِهــــادِ

أهْوى الشَّهور سواهُ فهْو أذَلّنـــي   وأحَبّ أيّامي سِوى الآحـــادِ

صبراً جميلاً يا بنيهِ فرُبَّمـــــا   نالَ المُنى قومٌ بِلا ميعـــادِ

إنّي نظمتُ لكمْ لآلئَ قولـــــةٍ   عرضت على الأوهامِ صفْو وِدادي

ولقدْ تمازج حُبّكُمْ بجوانِحـــي   كتمازجِ الأرواحِ بالأجســـادِ

فسقى انسكابُ الغيْثِ قبرَ أبيكـــمُ   مِنْ رائحٍ مُتدفّقٍ أَوْ غـــادِ

ولقدْ رَثيتُ وما قضيتُ حُقوقَكـُـمُ   واللهُ يعلمُ ما يُكِنُّ فـُــــؤادي



4 - أبو عبد الله بن إبراهيم:[1]

آليـــــتُ

وعن صلته بابن عباد في أغمات، جاء على لسان الشاعر (نفح الطيب، المجلد 3، ص. 572) ما يلي: «وكنت مِمَّن زاره بسجنه بأغمات، وحملتني شدة الحميّة له والامتعاض لما حلّ به أن كتبت على حائط سجنه مُتمثّلاً:

فإنْ تَسجنوا القَسريَّ لا تَسجنوا اسمهُ ولا تَسجُنوا مَعروفَهُ في القبائلِ

ثمّ تفقّدتُ الكتابة بعد أيام، فوجدت تحت البيت: لذلك سجناه: (البيت للمتنبي).

ومن يجعلِ الضّرغامَ في الصّيدِ بازَهُ تَصيّدهُ الضّرغامُ فيما تَصَيَّدا

1- جاء في «المغرب في حلى المغرب» أنه صاحب كتاب «الحديقة في البديع»، و«هوعم صاحب المسهب، أجلته محنة بلده في شبابه، وقصد إقبال الدولة ملك دانية، ومدحه»، الجزء الثاني، ص.34.
ولدى المقري، نقرأ أيضاً:
قال: وفيه أقول من قصيدة:
يا طالب الإنصافَ مِنْ دَهرهِ طلبتَ أمراً غيرَ مُعتادِ
فلو يكونُ العدلُ في طَبعهِ لما عَدا مُلكَ ابنِ عبّادِ
نفح الطيب، المجلد الثالث، ص.572.

فما أدري من جاوب بذلك، ثم عدت له ووجدته قد محي، وأعلمت بذلك ابن عباد، فقال: صدق المجاوب، وأنا الجاني على نفسه، والحافر لرمسه، ولما أردت وداعه أمر لي بإحسان على قدر ما استطاع، فارتجلت:

آليتُ لا أقبلُ إحسانَكُم والدهرُ فيما قد عراكم قد مُسِي

ففي الذي أسلفتمُ غُنيةٌ وإن يكن عندكمُ قد نُسي



5 - أبُو العَلاء بنُ زُهر:[1]

تَنافَسَتِ المَراتِب[2]

القصيدة جواب على قصيدة المعتمد «دعا لي بالبقاء». والسياق العام لهذه القصيدة، أن المعتمد طلب من ابن زهر علاج بعض كرائمه، في أثناء قدوم الأخير إلى المغرب، إشرافاً منه على صحة ابن تاشفين. ومما هو مُثبت في «ذخيرة» ابن بسام (القسم 2، المجلد 1، ص. 227)، نطالع «فلاطف علاجها ورفع قدر المعتمد بالتبجيل، ودعا له بالبقاء الطويل، وكتب إليه المعتمد إثر ذلك بهذه الأبيات»... فما كان من ابن زهر إلا أن ردّ عليه بأبيات أخرى، نذكرها في ما يأتي:

تنافستِ المراتبُ فيكَ حتّـــى حللتَ العسر إذ نجَبَ الشقـــاء

عـزيـز أن يـنـال البحرَ نِهْـــيٌّ وتسقي الكوثرَ العـذبَ الرِّشـاء

1- هو أبو العلاء بن زهر، اشتهر اسمه في علوم الطب. أتقن هذه العلوم إلى جانب الفلسفة والمنطق، بموازاة الأخذ بنصيب من الأدب ولحديث على أيدي شيوخ قرطبة. طبقت شهرته الآفاق، فوصلت إلى المعتمد الذي استلحقه ببلاطه. وبعد أن ألحق المرابطون الأندلس بسلطانهم، استدرج ابن تاشفين الطبيب ابن زهر لخدمته في بلاطه.

2 - القصيدة في الذخيرة، القسم الثاني، المجلد الأول، 228.

ويُـلـقـى فـي مـتـون الـرّمـل مــاءٌ وتشكو غايةَ المحْلِ السمـــاء

ولكن الـزمـانَ بـلـؤمِ طبْــــع على الـحُـرّ الشريف لـه اعتـداء

ومـجـدِكَ إنـه قسم عظيـــــمٌ به وُجِـدَ السّنـــا ولـه اعتـداء

لكنتَ الغيض إنْ محْل تــبدَّى وكنتَ الليثَ إن عـنَّ اللقـــاء

ومـثـلُـكَ، عـزَّ قــدرُكَ عـن مثيـل يـؤمَّـلُ أن يطول لـه البقـــاء

لأنَّـك في سماء المجد نجْــمٌ به لنواظر الدنيا جـــــلاء

وغـايـة كــلِّ شــيء لانتهـــاء وأنـت لغاية المجدِ انتهـــاء



ابن الخطيب:[1]

زرتُ قبرَك[2]

عن هذه الأبيات، يقول ابن الخطيب (نفاضة الجراب، ص. 57): «وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد، أمير حمص وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربي، رحمه الله، وهو بالمقبرة القبلية عن يسار الخارج من البلد، قد توقل نشزا غير سام وإلى جانبه قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماد إشراكاً لاسمها في حروف لقبه، المنسوبة إلى رميك مولاها، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار إلى أجداث من ولدهما. فترحمنا

1- في تعريف بابن الخطيب، نقرأ لدى المقري في أزهار الرياض «هو لسان الدين، وفخر الإسلام بالأندلس في عصره، فنقول: هو محمد بن عبد الله بن سعيد (بن عبد الله بن سعيد) بن علي بن أحمد السلماني، قرطبي الأصل، ثم لَوْشِيَّهُ، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرّفة بلسان الدين، الوزير الشهير، الطائر الصيت، المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة بالعلوم على اختلاف أنواعها، رحمه الله»، الجزء الأول، ص.186.

2- لسان الدين بن الخطيب، نُفاضة الجراب في غلالة الاغتراب، نشر وتعليق د. أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص.57.

عليه وأنشدته»:

قْد زُرتُ قبرَكَ عن طوْع بأغمــاتِ   رأيتُ ذلكَ من أوْلى المهمـــــاتِ
لِمْ لاَ أزورُكَ يا أنْدى الملوكِ يــَداً   ويا سِراجَ اللَّيالي المُدلهِمّـــــاتِ
وأنتَ منْ لوْ تخطّى الدّهرُ مصرعَهُ   إلى حياتي لجادتْ فيهِ أبْيـــــاتي
أنافَ قبركَ في هضْبٍ يَمَيّـــــزُه   فتنتحيهِ حَفيَّاتُ التحيــــــاّتِ
كرُمْتَ حيّاً وميْتا واشتهرت عُــلاً   فأنتَ سلطانُ أحياءٍ وأمـــــواتِ
ما ريءَ مثلُكَ في ماض، ومعتقـدي   أنْ لا يرى الدَّهرَ في حـال ولا آتِ

بين يديّ الخاتمة

ليس من المناسب الحديث عن الخاتمة في هذا السياق. مجرد أن تكون عنواناً، يُعاكس مطلب استمرار التواصل، بوصفه الروح المتحكمة في مختلف خيوط هذه الدراسة. وبخلافها، أي الخاتمة، تكون الفاتحة أنسب لحديثنا، نظراً لتوجهها إلى المستقبل.. وليس إلى الماضي. والسؤال الذي يمكن طرحه بهذا الصدد، هو: كيف يكون المعتمد موضوع المستقبل، مثلما كان موضوع التاريخ في أقوى لحظاته؟

إن التوجّه إلى المستقبل، يتمّ عبر اعتبار المعتمد إرثاً حضارياً- إنسانياً مشتركاً. هل في ذلك من جديد، خصوصاً أن الأندلس تسكن الجميع على مستوى الخيال، كما على مستوى الواقع في مختلف تجلياته الحضارية؟؟؟ إن الإرث الأندلسي، وفي قلبه المعتمد، يُشكّل مُقوِّماً رئيسياً من مُقوّمات الهويّة العربية. فإذا كانت الجغرافيا قد آلت إلى ما آلت إليه، فإن الأندلس باعتبارها المعنوي- الحضاريّ ما تزال حيَّة في نفوسنا نضرة.

إن المطلوب، بهذا الشأن، ليس أقـلّ من الوعي بالحضور الأندلسي، خدمة لبعد التعدّد الذي يخترق شخصيتنا بأكثر من عنوان. أو ليس التعدّد رديف التسامح، خصوصاً في ظِلّ واقع دولي يكاد يطبق عليه سوء الفهم، بل التطرّف والعنف؟.

لا معنى للغربة بأي وجه كان في الوقت الحاضر.. تلك الغربة التي أفاض في الإحساس بها المعتمد حَدّ الهوس. فالأندلس انتقلت، بمعظمها، إلى المغرب، وإلى مختلف البلاد العربية. إن الأندلس قائمة فينا إلى اليوم، مادامت نفس القيم الحضارية مستمرة بيننا. المغرب، كما مشرقه، يكفان عن أن يقيما في الأندلس التاريخية، حين يشيحان بوجهيهما نحو الانغلاق والتعصُّب.

وفي سبيل استمرار ذلك، من الجدير الاهتمام برفع صوت المعتمد عالياً.. صوته الشعري الإنساني الجميل. ولعلّ أنسب مكان يرتفع منه ذلك الصوت، هو مكان إقامته بأغمات تحديداً. فحريٌ بنا الاحتفاء بالمعتمد، مثلما يتم الاحتفاء به في شبه الجزيرة الإيبيرية.

بهذا الاحتفاء، تطيب روح المعتمد مقاماً..

وما من شك في أن تطيب به كل بلاد العرب بالنتيجة..

أرضاً للإبداع والتواصل الحضاريين.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أبديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي

28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير" - مختارات شعرية	
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبد الدين حمروش

صدر في سلسلة كتاب الدوحة













يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com



المُعتمدُ بنُ عبَّاد

في سنواته الأخيرة بالأسر

«إن التوجُه إلى المستقبل، يتمّ عبر اعتبار المعتمد إرثاً حضارياً- إنسانياً مشتركاً. هل في ذلك من جديد، خصوصاً أن الأندلس تسكن الجميع على مستوى الخيال، كما على مستوى الواقع في مختلف تجلياته الحضارية؟؟ إن الإرث الأندلسي، وفي قلبه المعتمد، يُشكِّل مُقوَماً رئيسياً من مُقوَمات الهويّة العربية. فإذا كانت الجغرافيا قد آلت إلى ما آلت إليه، فإن الأندلس باعتبارها المعنوي- الحضاريّ ما تزال حيّة في نفوسنا».



وزارة الثقافة والفنون والتراث

الدوحة - قطر

www.aldohamagazine.com